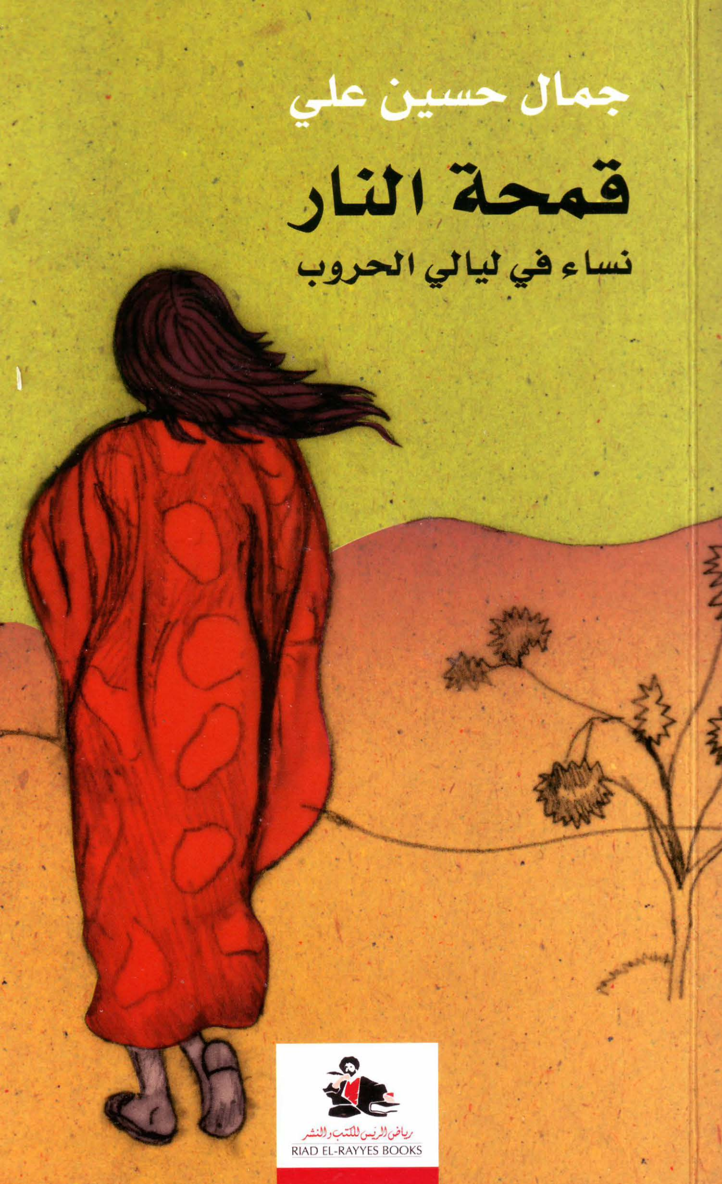
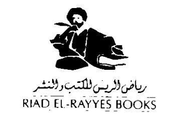

جمال حسين علي
قمحة النار
نساء في ليالي الحروب
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

جمال حسين علي

قمحة النار

نساء في ليالي الحروب



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Fire's Wheat Grain

Women in Wartime Nights

by Jamal Hussein Ali

First Published in January 2009

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 277 - 5

الطبعة الأولى: كانون الثّاني (يناير) ٢٠٠٩

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم ورسم الغلاف: دينا خليفة
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات

العراقية

«أريد أن أمشي داخل أكياس البذور
لأسقط على أرض تأجل حرثها»
ـ مرغريت واكر ـ



محابر الحروب

قصّت لنا الحروب أفعالها ما إن زرعنا صورتها برسائل العنف، لكن تبقى الحكايات الأكثر ولعاً وتأثيراً، الخاصة بالحرب التي تفوق الحرب، عن تلك البيادر الرافعة صوان المدن التي يندحر منها رجال ليستبدلهم آخرون معتقدين بالنصر، لكن تبقى الشموع الذابلة بعد كل دمار ومدن مستباحة مؤازرة بأكف النساء الوحيدات الحاملات قلوب المهزومين والظافرين على السواء، ململمات الأسى ورحيل الرجال في التخوم البعيدة أو إلى الأبد، تحت أنقاض المدن الساقطة تواً وأسوارها.

ستبقى حكايات النساء في محن الحروب الأكثر إفراطاً بثقل الحقيقة كتمهّل فراشات عند حقول تحترق، اللواتي لا يمتلكن إلا جلودهن وحيرة الأطفال وقفار الشوارع الملتهبة. ولا ندري لماذا بعد كل حرب نعيشها ونكتب عنها؛ تبقى صورة واحدة خالدة تقتنص

الذاكرة؛ لا بد في كل مرة أن تكون لامرأة، تبعثر الأبجدية وتلقن الدرس الصحيح.

سنبدأ بصور الأفغانيات كما حافظن على غيومهن ولهجة نجوم أعينهن، بتموج الخمار وسلاسة الأغطية المتعددة التي تحجبهن، وكيف استطاعت يد الغريب رفع النقاب عن جمالهن، ذلك الجمال الذي لا يدانيه أحد ولا حتى قطرات المطر في صحراء.

كيف كانت الأفغانية تقضي يومها، بل ما الذي جعلها تقضيه، مع السنوات العجاف من حقول الرجال الحارثة ما يمت لها بصلة، لنفسها وللشفق.

ومن الأفغانية إلى الشيشانية، تلك القوقازية الشمّاء التي تعودت دفن الزوج والولد والوالد، التي تأتي إلى الدنيا محروقة الأكف، مكسورة الزينة، المحطمة في طوابير الفقراء وإن استعدت للحياة فلا تستطيع إلا أن تتحدث بدلاً عنك: أننا محبان!

وإن كنا جوار الشيشانيات والأفغانيات مجرد عابري سبيل، فما الأغنية التي يمكن ترديدها مع كرديات العراق، نوافذ نصف قرن من الحروب والمعارك وقناطر التعب وسقوف المأوى للثوار والمطاردين، مع الزوج الذي لا يقضي في كنفها غير نصف ليلة وربع قبلة، ليبقى خدها ناشفاً بانتظار إطلالته أو نعشه.

كم تسنى لهن من جروح لينهضن من جديد، كما شقيقاتهن في العراق الآخر الممتلئ بالنواحات والنادبات والكسيرات والحاملات اللعنة من المهد، كنداوة فجر مقبلات على الحياة، عصافير اقتلعت

أجنحتهن قسراً.

في المربع النسائي لأربعة أقاليم كتبت عليها الحروب وامتلاء الموت، تتوحد النسوة في أفغانستان والشيشان وكردستان والعراق في رصّ أعمدة المنزل والعمل المتواصل نيابة عن الجميع وملاءمة الفرح مع الشدائد وإضاءة قبو الحياة المعتم.

هنّ صور الحرب الباذخة الوحشة ومسلّتها الواهنة، صديقات الأشجار ومطفئات النيران والجبال التي لا تنخّ إلا عند الأنهار.

هنّ طهارة البلدان التي احترقت والواصل والموصل وحتى الكلمات التي سحقتها المسرفات، ومن ذاكرتهن نستبدل؛ هذه المرة؛ المزج الأول لحزن الحروب المدنسة، فاتحين صهوة الأبواب لهنّ، ليحكين ما لا يروى، عن بلدان ما عادت تستطيع الكلام.

[يتضمن هذا الكتاب مشاهد ومقابلات وحوارات للمؤلف تخللت جولاته العديدة خلال السنوات القليلة الماضية في كل من أفغانستان والشيشان وكردستان والعراق].

الأفغانية

«جوهرة سليمة تحت المصيبة»

ـ ستيفان مالارميه ـ

كيف تقضي المرأة الأفغانية يومها؟

«إني أحب! إني أحب
لن أكتم حبي ولن أنكره
حتى لو نزعوا لي بالسكين كل شاماتي»

ـ من الشعر النسائي الأفغاني ـ

الشارع الأفغاني متحرك إلى أقصى حد ويقبل التقدم لا التراجع وللأفغان ميزة استيعاب الجديد. وللمرأة من وجهة النظر هذه الفضل الأكبر، فلا يمكن أن تطأ قدم القريب أو الغريب في هذه البلاد دون أن تعيش وجودهن وليس فقط أن تشعر به.

وبسبب عدم وجود مراكز علمية متخصصة بمناقشة مسائل الديموغرافيا

وتوزيع السكان، فضلاً عن الإحصاء العام للنفوس، لا يمكن أن يجيبك أحد عن السؤال المتعلق بنسبة المرأة في المجتمع الأفغاني أو حتى يعطيك رقماً تقريبياً عن هذه النفس المغرقة بالآلام.

لكن حتى مراقب بعيد يمكنه التنبؤ بهذه النسبة في بلاد اهتمت كثيراً بحصد الرجال، وأولئك الذين رحلوا بدون تذكرة العودة، الهاربون واللاجئون في أصقاع الدنيا. وفي النتيجة اختار القدر للمرأة الأفغانية لعب دور القلب النابض للمجتمع فهي الأرملة والزوجة التي تهفو إلى سماع حفيف الغائبين، حاملة أسماء المفقودين والأسرى والضائعين والمهاجرين. وهي الفتاة اليانعة التي تحفظ قصص الآباء عن ظهر قلب والأخت المجروحة المحتفظة بعباءة الأخ الغائب أو المطارد أو المتلاشي والمحفور خلف زجاجة الصورة اليتيمة في مهب الدار.

نسبة المرأة الأفغانية في دولة لا تعرف عدد سكانها هي الأعلى من الرجل وفق منطق الحرب وعصفات الزمان. لذلك تجدهن زهرات شاحبات يحملن أرواحاً متآكلة لم يدفئها نسيم العزيز ولم يرشها برماده الخامد.

أصل الخيمة

«يريد حبيبي إبقاء لساني في فمه
لا من أجل اللذة
لكن ليفرض حقوقه الدائمة عليّ»
ـ من الشعر النسائي الأفغاني ـ

البرقع التقليدي الذي أصبح سنّة طالبان وبدأ به دستورهم كأن وجه

المرأة يهدد الأمن القومي للبلاد، لم يكن وليد هذه الحركة الأميركية، بل هو اختراع بشتوني بحت ليس للإثنيات الأفغانية الأخرى علاقة به. وهو منحدر منذ الأزمنة الغابرة حيث وطن البشتون المنطقة. ولم يفعل الطالبان شيئاً سوى العودة إلى مقاساته.

ولأنهم تركزوا في الجنوب الأفغاني وكابول، تجد حتى الآن حساسية بالغة وخشية محسوبة للمرأة في رفعه بسرعة.

غير أن الأمر يختفي تدريجياً ما أن تتحرك نحو الشمال. فمثلاً، لا يعدّ مستغرباً رؤية مجموعة من الفتيات في مزار شريف يرتدين الملابس المعتادة (التنورة والقميص والجاكيت) بلا أغطية ولا خيام زرقاء أو بيضاء أو سوداء. ربما لأن طالبان لم تمكث طويلاً في العاصمة الشمالية، ويرجح اقترابها وتأثرها بالجار السوفياتي وتقاليده وخاصة أوزبكستان التي تبث قناتها التلفزيونية يومياً في المدينة، ولعل عامل الشمال الأكثر تطوراً من الجنوب قام بدوره هو الآخر حتى على هذه الأرض.

ويبدو أن المرأة في كابول وجنوباً، بحاجة إلى من يساعدها في إزالة وتد الخيمة التي نصبوها عليها بلا إذن ولا شفقة. ويلاحظ حتى في كابول، أن المرأة التي امتلكت قدراً من الشجاعة وبادرت في رفع النقاب بعد سقوط حكومة طالبان، لم يعتب عليها الشارع ولم ينتبه لها ولم يسارع في تأنيبها. بمعنى، أن النقاب الآن في ملعب المرأة الأفغانية، يمكنها إزالته في الوقت الذي تقرر فيه، وأصبح الأمر شخصياً يتعلق بها وبزوجها أو برب عائلتها.

والتزامن ضروري أيضاً في هذه الحالة. فالطاجيك والأوزبيك يقولون

بأنه عادة بشتونية اضطررنا لمسايرتها حتى لا نصبح استثناء. وهذا الإرث الصعب آذى الجميع لكونه شغلهم عن نواح أكثر أهمية في الحياة وأزاح زهو الفتيات ووأد المزيد منهن منذ المهاد.

وإذا كان الطاجيك يسيطرون على أوضاع العاصمة بالكامل، فأمامهم المبادرة لإثبات جدية اعتراضاتهم القديمة، ولو كانت فردية في بادئ الأمر (وهذه المبادرات تمضي قدماً الآن)، ففي النهاية ستزول الحاجة للخوض في جدل حول التعقيد والتراخي أو البحث في الفروق بين النور والظلمة.

الأسواق نسائية

السوق «عامل» اجتماعي ـ سيكولوجي هام ساعد المرأة الأفغانية على إيجاد ساعة النشوة للأقدام لتتحرك خارج الحيطان. أي إنسان بلا ائتلاف الجسد والروح سيخلو قلبه ودورته الدموية من الحرارة. فما بالك بالمرأة في أفغانستان التي تقوم بمهام متعددة وكما ذكرنا فهي العمود الفقري للدار بغياب الرجال وحتى بوجودهم.

بالإضافة إلى ذلك فإن المرأة الأفغانية هي المسؤولة عن توفير كل متطلبات البيت ووجودها في الأسواق أمر طبيعي وليس «مكرمة» من السادة.

ولكي تحصن نفسها من زعيق محتمل، توزع ربة البيت احتياجاته بشكل يجعلها تذهب للسوق مرة واحدة في اليوم على الأقل. فلا تشتري الخضر مع الفواكه، وتتناسى الخبز أو اللبن أحياناً. وهذه

الملاءة مرقعة أكثر من اللازم، عصراً بحاجة لزيارة سوق القماش. ويقال إن بضاعة رخيصة نزلت في سوق الهرج عليها البحث عن حلة جديدة ــ قديمة، والطريف أنها تشتري لرجلها أول الأمر حتى تملأ فمه ويسكت.

باختصار، في إمكان للمرأة إيجاد مئات من المتطلبات (أو الأعذار) لكي تتواجد في السوق. وهذا ما تقوم به الأفغانية على أفضل وجه.

عرس وذهب

وهناك أعذار المناسبات. فالاستعداد لحفلة العرس يعطي المجال للقريبات والصديقات لفترة لا تقل عن شهرين للذهاب يومياً لمساعدة العروس في اختيار بدلتها والتمعن في ذهبها والتدقيق في صلاحية أثاثها. ولكل قريبة اختصاص، فهذه تفهم في أدوات الماكياج، والأخرى خبيرة في الذهب، أما المتزوجة فتدرك أهمية البحث عن أثاث متين لمجابهة أعصاب الزوج الفائرة. وبعدها يأتي دور خبيرات الصحون والتحف والسجادات إلخ.

والطريف أن جميع الخبيرات يتجمعن كل صباح لمصاحبة العروس في هذا التجوال الممتع، ويستمر هذا العيد المتحرك لأسابيع حتى ظهور عروس جديدة.

الأمراض المفروضة

مستشفيات كابول تقريباً، وجدنا أن الرجال لا يمثلون إلا ٥٪ من المراجعين، وعلى الأرجح هم المرضى الحقيقيون من بين الجمع الغفير لنساء لا عدّ لهن تمتلئ بهن الممرات والغرف وباحات المستشفيات. ومن السهولة ملاحظة انشغالهن بالحديث فيما بينهنّ والتسامر ولا يلتفتن حتى لوجود الأطباء أو الممرضات أو لدورهن في الطابور الاختياري. ويبدو أن العاملين في المستشفيات يدركون هذه «الموهبة» فلا يضيرهم أن تتحول أروقة مستشفياتهم إلى نواد نسائية مجانية، ما دام وجود هذه الزحمة اللطيفة يعطي أنوثة للمكان كانوا محرومين منها، بالإضافة إلى أن هذه الزحمة تبرر شكاواهم لـ «وزارات صحات عامات» ولليونسيف بالتكثير من المساعدات.

«تسالي» وحجج أخرى

وهناك مرافقة الصغار للمدرسة في الذهاب والإياب. وفي الفترة ما بين الذهاب والإياب هناك الدكات التي يتجمعن عليها مثل واحة نساء.

وتجدهن في منتصف نهر كابول، يغسلن الملابس ويغلين ماءه، يحملن الحطب والملابس الرطبة على ظهورهن لمسافات بعيدة.

وتطل المرأة على أعلى القمم الأفغانية تنشر البذور وتطعم الحيوانات وتمتطيها، تحمل الحطب وتبني الدور.

وقد تراها في صندوق سيارة أو على متن دراجة هوائية.

وتتزايد أعداد المتعلمات في مراكز تعليم اللغات والكمبيوتر، ويمكنهن التجمع قبل المحاضرة بساعة ويغادرنها بمشي سلحفاة أو يتوقفن عند المركز لمناقشة آخر المستجدات. وكذلك الحال في جامعة كابول ومعاهد الدراسات الأخرى.

المصرّفة الحديدية

يتجمع مصرّفو العملات الأجنبية في مركز كابول بأعداد تكفي لقافلة جمال محملة بالدولارات. أغلبهم من الشباب في العشرينيات من العمر. وهذه الظاهرة طبيعية. لكن المثير أن من يسيطر على سوق التصريف والبورصة وتحديد السعر امرأة. وهذه المصرّفة الحديدية تجدها في كل مكان في السوق، توجّه حملة النقود وتعطي الأوامر بحزم، وأحياناً تصل إلى درجة تنظيم السير في المنطقة حين تزاحم سيارات الراغبين بالتصريف.

بعد اكتشافنا للرأس «الكبيرة» في سوق التصريف، أخذنا نتعامل معها مباشرة ودون وسيط، وكانت ـ للإنصاف ـ تعطينا أفضل سعر وأنظف أوراق نقدية.

نواد نسائية

وللطبقة الأفغانية الراقية عالمها الخاص. ونساء هذه الطبقة يحتجبن داخل بيوت العائلة الفخمة ومزارعها ومنتجعاتها، ويشكلن ما يمكن أن نطلق عليه «الأندية النسوية» بتجمعهن بشكل دوري. يمارسن السباحة ويلهون بكرة الطائرة والريشة والبليارد. وهذا التجمع في مظهره العام لا يعدو كونه زيارات عائلية، غير أنه في حقيقة الأمر،

نواة لنشاط نسوي عريق في أفغانستان منذ أيام الملكية التي ازدهرت بها العائلات الأرستقراطية. ولتجمعات «الفلل» النسوية في كابول تأثير كبير حتى على سياسة البلاد، لأنها تضم عائلات الحكومة وأمراء الحرب ورجال الأعمال الكبار في أفغانستان، زد على ذلك أن الكثير من العائدات إلى هذه التجمعات من المهجر، أعضاء في حركات نسوية أفغانية معروفة وناشطات لهن باع طويل في هذا المجال ومحترفات العمل الجماهيري والسياسي منذ الوجود السوفياتي، ومن بينهن عضوات الحزب والكمسمول وغيرهن.

وإذا كان الأميركان يدسون ضابطات المارينز وأجهزتهم الخاصة الأخرى في لقاءات الأرستقراطيات الأفغانيات الدورية، فإن الروس يهتمون بعضوات الحزب والكمسمول الأفغاني السابقات.

وليس من المصادفة اللقاءات الحميمة في دار الطبيبات الروسيات في كابول (وهو من الفلل الراقية أيضاً) مع هذه الشخصيات النسائية اللواتي تخرجن من معاهد الاتحاد السوفياتي العلمية والسياسية، في تجمع أقرب للصالونات النسائية التي تضم مثقفات المجتمع.

ويمارس الجزءان (الأرستقراطي والسياسي ـ الاجتماعي) الدور نفسه تقريباً وحتى الأسلوب. وفي النتيجة أن المرأة الأفغانية دخلت إلى السياسة الكبرى من الفلل الخاصة وتساهم ولو بالخفاء في الوقت الحاضر في دفع الحركة النسوية الأفغانية إلى الأمام.

في البحث عن الجسد المفقود

مثل هذه المواضيع لا يمكن أن تعدّ لها مهما امتلكت من مكر وحنكة. والوقائع قد لا تساوي شيئاً وليس بالضرورة أن تحمل أهدافاً يسيرة كانت أم عسيرة. لا الأرقام هنا ذات قيمة ولا الأوزان.. وفي بلد أطلق من الرصاص ما تجاوز حبات المطر المسترسلة على قصته، لا حديث عن مسببات السقوط الإنساني حيث تنجب كل رصاصة عاهرة بلا أسماء ولا وجوه: النائحات واليتامى، غارزات الدموع في أبر الأشجار، ذوات الأجساد الرطبة الراعشة في ثلوج كأنها تمائم، غزالات البلاد المصطفات المستويات حشرات قاتمة، الهابطات على صبية أسسهم الجوع وفقاً لجرح طويل وعميق.

في مثل هذه المواضيع الدامعة تتراءى شبكة من المهزومين والمسحوقين، قصاصات الورق العالقة بها الكلمات الدنيئة، المحكومين بالسقوط مدى الحياة. تصغر الكلمات عند وصفهم

وتتضاءل: إنهم ضحايا رحلة البحث عن الجسد المفقود.

الليل والنهار

عندما حلّق طالبان على جناح السلطة كانت البلاد قد وصلت إلى حالة من الفوضى الاجتماعية والسياسية والأمنية لم يقدر أحد على تدوينها بسجل أو أرشيف. وارتضى كل من سولت له نفسه البقاء في الوطن التظاهر بأي شيء عدا الحقيقة. ولأن طبيعة الحياة فرضت نظامها المعروف من أجل البقاء، فإن أصحاب مهنة هذا الموضوع ارتدوا حرباءهم أيضاً ـ حالهم كباقي الخلق ـ ليحافظوا على وجودهم الفيزيائي بانتظار اللحظة الفاصلة.

وكانت الدعارة في أفغانستان من المهن التي بدا أن طالبان أغرقت نفسها في محاربتها كما تظاهرت في مكافحة زراعة المخدرات والاتجار بها وزراعة العنب وصناعة الخمور.

وإذا كان أهل المخدرات قد نجوا بجلدهم وبضاعتهم لأسباب يعرفها وزير مال طالبان، وصناع الخمور تلقوا ضربة العصر حيث اقتلعتهم الحركة من جذورهم وأطاحتهم بلا شفقة، فإن عاهرات البلاد تحولن إلى حمامات مرفرفات على الدوام.

لم يسبين كما حملت لنا الأنباء، ولم يجرجرن من شعورهن إلى ملعب المدينة كما تتحدث الصورة الوحيدة لإعدام امرأة فريدة، ولم يحرقن على مذبح الطهارة.

وجدن أفضل الحلول الشرعية والإنسانية، فالسيف لا ينهي النشوة

ويمكن أن يفتح الباب لمن يريد الجسد المفقود من قمة الرأس إلى أخمص القدم، لكن بالخلوة الشرعية، التي ما إن تنقضي، حتى يأتي النهار بسننه وقوانينه.

مأذون بالأجرة

كل ما يحتاج له الباحث عن الجسد المفقود ليخرج نهاراً كما دخل ليلاً بلحمه وشحمه سيارة تكسي ومأذون شرعي. وهؤلاء كالمترجمين أيام الحرب الأميركية العظمى على الإرهاب، لا يمشون خطوة بدون تكسي. وهم من الكثرة بحيث ازدحمت بهم أروقة وزارة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» التي كانت تمنحهم إجازات رسمية لتحرير عقود الزواج. وكانت هذه العقود تحرر كل يوم كما يحرر طبيب منفرد روشيتات (وصفات) الأدوية في قرية أصابها وباء.

والأكثر طرافة أن الراغبين في «الخلوة الشرعية» لا يكلفون أنفسهم ويبحثون بين براقع النساء ومن خلال المعارف وسجلات «النهي عن المنكر» السرية أو شرطة الآداب كما تسميها الدول العلمانية «الكافرة»، بل يلتجئون مباشرة إلى حضرة المأذون الشرعي (وهم أكثر عدداً من سائقي التكسي المسجلين في سجلات وزارة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر») ليعطيهم قائمة بالمتيمات والمنتظرات السيد الزوج، زوج الليلة الواحدة!! ومع القائمة بالأسعار: الزواج لليلة واحدة، لاثنتين، لأسبوع إلخ وكذلك العمر (يضرب الأسعار أضعافاً لو كانت عذراء بالطول بلون البشرة بالوزن!)

ولكل فقرة سعرها بالطبع.

ينتهي الأمر بعد ليلة أو اثنتين حسب «بنود العقد» ليذهب السيد الزوج إلى المأذون الشرعي ثانية ليعلن أمامه «إخلاءه» المكان أو «تحريره» للسلعة أو ما يسمونه شرعاً «الطلاق».

والدفع كما في مهنة الدعارة يكون عادة للقواد، في حالتنا هذه يدفع الزبون مباشرة قبل إتمام العقد للمأذون الشرعي!!

دولاب المأذون

ولأن «الزوجة» تستقبل في الشهر كذا عدداً من «الأزواج» ولأن أغلبهم يجهلون أيَّ شيء من المصطلح الذي اخترعه النفسيون «الثقافة الجنسية»، فإن للمأذون الشرعي دوراً في تثقيف «الأزواج» الجدد على الشغلة بضرورة استخدام الموانع الرجالية. ولو تطلب الأمر يعرضها عليهم ولو تصوروها «علكاً» أو نفاخة يمكنه حتى تجربتها أمامهم.

ولم لا، فلا حرج في الدين. فدكان المأذون فيه دولاب خاص يبيع فيه ما يشاء من بضاعة «الكافرين» الممنوعة في الصيدليات: حبوب منع الحمل، موانع رجالية، مقويات جنسية... هو الوحيد الذي باستطاعته ملء سراويل الرجال بكل ما طاب، فلا حرج، ما دام كل شيء يجري بالمعروف!!

الجروح الظافرة

بطون النساء. فأغلب الرجال وخاصة المبتدئين «يفترسون» ضحاياهم بلا رحمة حتى لو أعاد لهم المأذون شرح عملية ارتداء الواقي عشرات المرات.

وفي النتيجة ينتفخ بطن إحداهن بطفل من زوج لا تعرفه حتى لو أعادت حساباتها مع المأذون، لأن أغلبهم وببساطة مقاتلون رحّل: اليوم كانوا هنا وغداً ـ حتى الشيطان لا يعرف لهم مستقراً.

تحمل الضحية الشقية جرحها وحدها بعد أن يتفرق عنها الجميع، وفي أحسن الأحوال وأنبلها يتركونها في حالها تسترزق من عطايا الزوار الجدد. أما في الغالب فيلقون بها كاللحم الفاسد إلى أقرب مزبلة خوفاً من متاعب لا حصر لها.

أما بعد،

وقد أزيلت الغمة ورحل المأذونون وأغلقت دكاكينهم التي تشبه إلى حد كبير في «البلدان المتحضرة» شركات التعارف، فلا يوجد ما يمنع خروج المهنة إلى العلن. فضلاً عن أن هذه المسألة لم تعد تهدد الأمن القومي للبلاد وخارجة عن نطاق اهتمام القادة الجدد المشغولين بمصائب أكثر جسارة.

فكيف انتقمن من تلك الليالي السوداء؟

دستور جديد

ألفن دستورهن الجديد الذي بموجبه لا تستطيع أية قوة في أفغانستان السيطرة عليه حتى لو تدخلت القوات الدولية. وعقدن حلفاً

استراتيجياً مع أهل الأمن والاستخبارات والبوليس المحلي تحت شعارات اتفق عليها «لكم شغلكم ولنا شغلنا» مع الأخذ في الحسبان احترام مصالح كل طرف.

والمثير جداً بالأمر، أن من يقود عملية بيريسترويكا بيزنيس الدعارة في أفغانستان وغلاسنوست التسعيرة الجديدة هم المأذونون الشرعيون الكبار، أي الذين كانوا يشرفون عملياً على «بيزنيس زواج المتعة» في البلاد. فهؤلاء يمتلكون كل مقومات تسلّم الراية، فلديهم كل العناوين والخيوط والشبكات، وبـ «حوزتهم» كل أسرار المهنة ويقف وراءهم جيش لا حصر له من «المنتجين والمستهلكين». تحت سيطرتهم كل تجارة الجنس في الإقليم ولديهم وكالاتهم الرسمية وشركاتهم التي تستورد كل البضائع الجنسية والحبوب والأدوية. هم في المفهوم المعاصر قادة مافيات الجنس في المنطقة، المستوردون والمصدرون، الأبرار في عمل المعروف السابقون وبناة الحياة المعاصرة الحديثة.

التسعيرة الظريفة

تأخذ التسعيرة الجديدة في الحساب عوامل كثيرة، منها نوعية المستهلك (الزبون) ووضعه المادي ومنزلته وموقعه ومنصبه، والمكان (عندهم أو عنده) والزمان الذي يبدأ بساعة وينتهي بإشعار يحدده الطالب، وعمر البضاعة وإذا كانت مستخدمة أم لا، ووزنها بالكيلو وطولها بالسنتمترات.

ولم تفت القائمة الإشارة إلى ما يمكن تسميته «الجنس الطفيف». وهذا النوع ينتشر عندما تتجول البضاعة بنفسها وتزور الراغبين في

المحلات العامة وزواياها الخفية وفي غرف المطاعم السرية. وهذا يمكن التوقف عنده بمزيد من الأرقام التي عرضت علينا مباشرة وبدون مواربة: قضاء ساعة مع الاحتفاظ بوقار الملابس: ما يعادل ٥ دولارات. مداعبة الصدر (١٠ دولارات). «طريقة مونيكا»: ٢٠ دولاراً. الممارسة الجنسية الكاملة لمرة واحدة: بين ٣٠ و٤٠ دولاراً حسب العوامل المذكورة أعلاه. طبعاً الأسعار مرتفعة وتعادل الأسعار في موسكو تقريباً. وكما قيل لنا فالمهنة ما زالت في طور «إعادة البناء» وتعتمد الأسعار على العرض والطلب الذي ما زال شحيحاً. وربما كانت هذه الأسعار مخصصة للأجانب فقط.

الأساليب نفسها

ويشبه أسلوب ممارسة الدعارة في أفغانستان الأساليب المتبعة في كل الدنيا، فهناك البيوت السرية التي يؤخذ إليها الزبون أخذاً دون أن يعلم العنوان مسبقاً، حيث يتم الاتفاق على استخدام تكسي خاص يقوم بهذه المهمة.

وأحياناً يجلسن في التاكسي لتبدأ العملية والاتفاق والاختيار. وتقوم باختيار الزبون «الكبيرة» أو «الماما» حسب التعبير الدارج والتي تكون قد اصطادته في السوق أو المحال المعروفة أو عن طريق معارف موثوق بهم.

و«الماما» غالباً ما تتعاطى هذا الأمر أيضاً، فأغلبهن في منتصف العمر، والغريب أنهن يفرضن أسعاراً أعلى من رعيتهن ويحلو لهن ترديد عبارة: «لم أعمل منذ زمان طويل وهذه المرة وافقت من أجلك فقط» لكي تخور ممانعتك وتوافق بدون قيد أو شرط.

أصبح كل شيء واضحاً الآن. ولا داعي لاقتحام هذه الأوكار، طالما تتبعنا مسيرها، فولوجها أصعب بكثير من اجتياز حقل نابت بالألغام. فالحقائق اجتازت المعبر ولا بد من التوقف عن استرجاع كل هذه المهانة لاستعادة القدرة على الكتابة على الأقل.

رفع النقاب عن الجمال الأفغاني

«جميلة أنا إلى جانبك»

ـ من الشعر النسائي الأفغاني ـ

الجمال عندما يصبح بهذه السعة والكثرة كما في أفغانستان يستهل كل الأحاديث ويصوغها. وتأجيل التفكير فيه يسكر الكبد ويبلع الاستنباط ويؤخر النتائج الوردية. ولعل رَكنه ليجيء آخر عمود في الصفحة الأفغانية، ليس لغيابه أو استرخائه، بل لحضوره الشاق ولأنه محاولة أليمة لانتشال الحب من بين أنقاض الحرب.

أيتها الغائبة

بيديها تكوّر خيمتها اليومية على ظلالها المحترقة شوقاً للحياة لتمضي ماسحة الموجودات، متوهجة كمصباح لا بد منه لتطبق على المدينة

العقيمة: الفتاة الحقيقة.

لا تظن بهيئتها، واثقة من نضوج ثمارها وأبهة جمالها الذي تسطع كل الأشجار وتنحني له عند مقبلها. غادرت دميتها الأليفة، الوحيدة لتعرّي المكابرة وتخلط الإمتاع وتغري المؤانسة، تحسم مساورة الشك بالرجولة ناهشة، دوّامة، تسابق الريح التي تستحيل أرجوانية ما إن تهبط على شجرتها: هي الأفغانية المخفية بوشاح السماء، من بداية الطريق حتى اكتمال النوافذ.

ساندريلا

في اللحظة التي تقرر تحول النقاب إلى كهف مفتوح، بزهو وتمايل وإعادة تركيب التبعية إليه، مهما طال أو قصر أو تغيرت ألوانه أو امتزجت، هو التابع لا المتبوع للوحدة المصقولة التي يسمونها الجمال. فالثياب هي التي تفخر بانطلاقها الأثير من تلك الأصابع المحفوفة غير المحتملة. ولأقدام ساندريلا غريزة تكاثفت في بضعة سنتمترات متصدرة الساق: أغصان أزهار ابتكرتها الجنة ومسرى لانغماس المقل. تعود بالزمان في المرور الذي لا يقاوم. أظافر كالمناقير تنساق إليها النقوش متدلية بإثرها حملقات الخلق. ناعمات كفيضان بطيء، راقص. سريان مترنح لكتلة من الزينة بلا وزن: هذه الأقدام وحدها تبرق بسندريلا فريدة ـ أقدام فقط تطنّ في اللوحة: فكيف لو كان الطيف كله يصيب مروحة الفؤاد؟

الجمال المبهم

تعرف أنها اثمك وعذابك ورداؤك الصوفي.

ممسكة بعصا فتنتها لتمقت ثائرتك كي ترسل حياتها بين يديك.

تنبئك بالذي أقوى من الفيافي وأحلى من الريب وأخدع من الأشباح، تخبرك بلا إطالة بأنها الماسكة بدفة الزمان، بلا كلمات. تستجمع قواك لتحصي ذرات الغبار التي تخلفها ذيولها. رمس مصنوع بلا نقيصة كأن أمهر الشعراء حاك هذه الصورة. فكيف التسلق إلى برجها: أفي الإغراق في إلا وكيف؟

الجمال حين يتفنن

«خشخشة أساوري، يا حبيبي،
ستدلك على الطريق»
ـ من الشعر النسائي الأفغاني ـ

طرق لا تحكى وأساليب لا تستمع وكيد ما بعده غشاوة، ما تبنيه الأفغانية قبل الشروع بصيد المعذبين. وبالرغم من أنها تئنّ من محاصرة الكهف الأزرق أو الأسود أو الأبيض، فلديها مجال لمناورة النداء: كفوفها وأقدامها والرياح العابثة بوشاحها وتطفل شعرها عند زوايا النقاب.

العوامل الأربعة هذه من تحكمها: فمرة تستغل واحداً منها وأخرى الأول والثالث وأحياناً الرابع والثاني وإذا تطلب الأمر تفجرهما عليك دفعة واحدة كي تتأوه بلا شفقة: يا مأربي ومأساتي!

ونظراً للظرف الموضوعي للغاية الذي شيّدت الوزارات على أساسه

وأطلقوا ما تيسر لهم من عسس من أجله، فقد تحولت التجارة المرتبطة بزينة الكف والقدم وبضعة سنتمترات من الساق الأكثر شعبية وشرعية. وتركزت جهود المختصين على جعل هذه المناطق الأكثر بياضاً وجمالاً لما تبقى منهن!

أكفّ ناضجات مزروعات بوهج نباتات متسلقة. دائبات التهدج، متحليات بكل ما يحطم الجمال لكي يبقى لا يفارق ثراء العيون. أقراط وأساور ومحابس ونهايات خمرية للقميص، أو رباط يكاد يحدثك ويسلسل تأملاتك باتقاد خطوط وألوان متناسقة ليست كالثرثرة. همّها تدوين الجديد في فسحتها السارية من الذهول المسموح به. لمعان من الغربة؛ أثر يقتفي أثراً على واجهة الكف المصبوب الذي إن صعقك تشهق باللوعة المتاحة: ماذا أرى؟!

ولو اجتمعت كل السوبرموديلات في الكون لما قلدن مشيتهن: يا لها من تماثيل حذقة. لا تجذب فحسب، بل تصفق أدراجك وترتقي بخيولك الجامحة. الآن وهنا فقط، تجري الأوراق الزاهية وسط الزحام لتفضح كل طغيان الدنيا وكأنهن يضبطن صمام الوجع وخلوة الروح.

ترفرف سيقانهن كعناق استيقظ تواً في حديقة. أي أرض تعلق بها ولمّ الستار من الأشرطة المدلّاة بحرائق تخضعهن للنظام. وميض الأقدام هذه لا يعرف المشيب: خذها زورقاً يبتكر السد.

والعامل الثالث المرتبط بالرياح البريئة التي تداعب الوشاح لا حرج عليه ما دامت الرياح تسير بأمره. فإذا وهبت لحظة خيال وتجاذب أو ذهول فهو يوم بهيّ، ملهم، زرع قنطرته عبوراً للجمال. وإذا لم

تفعلها الرياح، تفعلها هي بوفاء عابر: بعثرة أو عطف، باعوجاج متعمد أو التقاط شيء ما لا يقع منها إلا في اللحظة التي اقترب القلب من السقوط معها. وكلما أطلت النظر إلى غزالتها، تمادت في تحيتها وعنفها غير المرئي بتناغم وسر لا يدركه إلا من غاص في هندسة الكيد المتأصل؛ العظيم!

أما الباب الرابع فيناديك بفضفضة الشعر أو جزء منه البارق أو الحارق أو الصاعق. ومهما عمل الخياطون لستر الخصلات المدمرة، فإن عينيك تتناولان خميلتها في اللحظة والدقيقة والساعة واليوم والشهر والفصل الذي تشاء فيه، هي وحدها، لخطف دمدمتك الخالية من التعبير، حتى تصل إلى أعماق تباين خطوط شعرها وسرحانه المبيد.

تضاد جماعي

هذا الجمال أنقذ العالم بتأكيد ديستويفسكي. وهو الوحيد الذي حافظ على نضارته في هذه البلاد. لكن النقاب عكس كل ما قيل عنه ربما أنقذ أولئك الذين تمر السنون دون ملاحظة وجه امرأة. تناقض غير مراقب يصعب إثباته.

هي واحدة المخلوقة الحسناء، ويقول المهذبون دائماً بأن كل امرأة جميلة وخاصة الأكثر نفاقاً منهم أو من يحاول تدارك حسن امرأته. لكنه وحسب كل المقاييس فإن قصاصة جمال من أية أفغانية تفوق ما تملكه الأميركية أو الاسكندنافية أو نساء شعوب أخرى.

لا تلمس البدانة لدى الأميركية ولا صفرة النرويجيات ولا ضآلة

الصينيات: يافعات، ساخنات، يتركن شعوراً لا يكل بالفرجة. متأججات بوحدتهن، يجمعهن عمر صبية طائرة.

الجمال والأمن

ولا يمكن استبعاد كل هذا الجمال عمّا حصل في البلاد وسيحصل لها. ربما كان لاستقرار الكثير من الرجال الغرباء هنا علاقة بالجمال. عندئذ يجوز اعتباره أحد العوامل السياسية التي أفضت فيما بعد للأمنية والعسكرية. ولا سيما أن معظم الغرباء تزوجوا من أفغانيات. ولو صحت هذه الفرضية فإن الجمال الأفغاني جدير بأن يغرق العالم بأسره بالحب والحروب.

ولعل الحرب الأميركية على أفغانستان والغرباء فيها قد خلفت وستخلف وراءها المزيد من الغموض والفوضى في ما يتعلق بمصير آلاف العائلات: النساء والأطفال، التي غاب عنها فجأة صاحب الدار.

القوّامون عليهنّ

والملاحظ أن الأفغان يفضلون الارتباط بأفغانيات، ولا يلعب انتماؤهن العرقي دوراً كبيراً سوى في مباحثات المهر. وحتى المهر لا يرتبط بشكل أساسي بوضع العائلة ومركزها الاجتماعي، قدْر تعلقه بالعروس نفسها، وتحديداً بجمالها. أما المشاكل المتعلقة بالفوارق الطبقية المعروفة، فتكاد تختفي مع اختفاء الطبقات في أفغانستان.

أما الأفغانية فلا يفرق عندها الأمر عندما تكون لا مبالية. ولو تجيبك

بصراحة وحرص فتجدها تفضل الأجنبي. ويمكن فهم ذلك على أساس رغبتها في التحليق بعيداً عن الطيش والجروح والقمع الذي رأته من رجال بلادها وكل ما يحيط بها من القوّامين عليها!

اقتناص الجمال

لا يستطيع حتى محترفٌ وضع خطة بعينها للكتابة عن الجمال. فهذا النوع من الموضوعات تصب فيه عصارة الموروث من الخبرة والمكر والقدرة على فك الأغلال. لذلك فهو الأصعب في بلد حكم دستوره إخفاء معالم الجمال. فما العمل؟

لم نترك الأمور على عواهنها لنرثي عجز العدسة. ولا بد من التأكيد بأن مئات الصور التي التقطناها للأفغانيات لم تأت بالصدفة، بل تدخّل في تحميضها ثلاثة وزراء على الأقل! وللإيجاز فإن طريقة البحث حتى للمحققين البوليسيين تبدأ في الإجابة عن الأسئلة المعروفة: الباعث، المستفيد، الدليل المادي.

ولكي ترفع النقاب عن الجمال لا بد من العثور عليهن أولاً. وثانياً، يجب أن تعرف بأنهن في هذه الأماكن يرفعن النقاب بلا حياء وبشكل رسمي. وثالثاً، أنهن يمتلكن هذا القدر أو ذاك من الجمال.

وكان لتتبع هذه الآثار فائدة دُهش لنتيجتها أكثر الزملاء نشاطاً ولا نعتقد بأن من عمل هنا خرج بمئات الصور الخالية من النقاب كما تسنى لنا. وكان ذلك بفضل تقفي أثرهن بلا هوادة أينما وجدن: لا يمكن أن تقيس قلادة الذهب أو قرطاً ما دون رفع النقاب، لا يستطيع الطبيب الكشف عليها بالنقاب، لا تتلقى المحاضرة داخل

غرفة الدرس بالنقاب وغيرها من الفرص.

بعضهن وخاصة عندما يكون الأستاذ امرأة وفي لحظة اقتحامنا لقاعة المحاضرة يرتدين النقاب على عجل. وكانت جملة واحدة ننطقها كافية لأن يرفعنه من جديد: لو كنتن أنتن مثقفات البلاد تفعلن هذا الشيء وفي هذا المكان فكيف حال النساء في القرى والجبال؟

ليس استفزازاً ولو بدا كذلك، بل دفعة متعمدة لتبسيط ما ترسب في أعماقهن. ومع ذلك لم يأت كل شيء بالصدفة فقد كنا نستند إلى تصريح خطي من وزيرة الصحة ووزير المعارف ووزير التعليم العالي للدخول والعمل بحرية في حوزتهن. أما عمليات الصيد في الشوارع والأسواق فذلك من فضل المثابرة.

مكرهات حقاً

وما إن يتآلفن معك، حتى تبدو الأشياء وقد سحبت منها كل اللعنات. وبعد ثوان تشعر بأنهن مكرهات فعلاً على التغليف والتعليب المفروض عليهن. تتقافز وجوههن بفرح وتطل أعناقهن ملاقيات الهواء وبأنفاسهن الناعمات تسطع بهجة الحياة. والجمال واثق من وجوده، مقدد، يلحّ بانبساط. ومع انتهاء الثواني الأولى وانتهاء مهلة التعرف، تعرض فسحة التفاهم وتنبسط آفاق الود بين عيونهن والعدسة. حسم الأمر وبان جوهر الجمال بإرادتهن وكأنها محاولة لإزاحته عن كاهلهن. يظهرنه من ثناياه بتكامله الذي لا يشبع: في الهزيع الأخير من المرارة وآهات منتصف الليل، في حيل الزمان وقراراته الزائفة لأن تذعن حركة الأمواج لمشيئته، في الأنس المارق والوحدة القصية.

احتفال أخير بالجمال

أسقطنا حملهن ولو للحظات، تلك التي يعود فيها البصر بعد نفثه بدخان لانهائي. ليخرجن من الغلاف محمومات الرغبة وكأنهن اكتسين لأول مرة سر الضوء واسم الوردة. قسمات ورموز نافرة، مسرة قلع الحائط الزائد والجدار الرابع نحو الشاطئ لنثر العناق والأزهار والبراعم على أجنحة الجمال.

الشيشانية

«أولئك اللواتي على الضفة
لسن غسالات
إنهن زوجات السجناء
يرسلن لهم الأطعمة عبر البحر
في مقاطف من القش»
ـ مانويل ايفاس ـ

الشيشانية الأخرى

وجد أكثر من ٢٠٠ ألف شخص شيشاني أنفسهم بلا مأوى جراء الحرب. وحسب البيانات التي أطلعنا عليها في دوائر اللاجئين وجد في أنغوشيا قرابة ١٩٠ ألف لاجئ في أسبوع الحرب الأول فقط كلهم نساء وأطفال تقريباً (كان ٢٠ ألفاً قد عادوا إلى ديارهم في الآونة الأخيرة). ويترك هذا الرقم انطباعاً محيراً لو أخذنا بنظر الاعتبار أن عدد سكان أنغوشيا نفسها لا يتجاوز ١٨٠ ألف نسمة! وتواجه السلطات الروسية والمحلية مشكلة ديموغرافية تتلخص في ظهور «شيشان أخرى» في أنغوشيا المسالمة والفقيرة.

ويبدو أن المسؤولين عن ملف اللاجئين في أنغوشيا لم يتحمسوا جداً لطرح هذا الملف في زيارتنا لهم لأن القيادة الروسية تجهد كيلا يحول «عامل اللاجئين» دون تحقيق أهداف العملية العسكرية في الشيشان. كذلك لم يرحّب القائمون على هذه القضية بدعواتنا

الملحة إلى زيارة معسكرات اللاجئين وأجابوا على إصرارنا بجملة مقتضبة: «ماذا يثير اهتمامك هناك .. اللاجئون لاجئون»! ومع ذلك اضطروا للموافقة على تلبية فضولنا بعد عملية «احتجاز» مهذبة لأدوات التصوير التي نحملها بحجة وجود مواقع استراتيجية توضح طريقة توزيع المستودعات العسكرية الروسية في الطريق. وعبروا عن خشيتهم من وقوع هذه الصور بيد «الإرهابيين» الذين يخططون للهجوم عليها وتفجيرها حسب معلومات المخابرات الحربية الروسية.

شيشان بديلة

تتكدس في بيت صغير في المدينة الأنغوشية قره بولاغ ١٥ امرأة ولكل منهن ٣ ـ ٦ أطفال. ومع ذلك يعتبرون أنفسهم في النعيم بالمقارنة مع الحالة في المعسكرات. لاحظنا أن الماء ينقصهم ويوجد حمام واحد لعدة مئات من الأشخاص يستخدمه اللاجئون من معسكر قريب أيضاً.

وفي المعسكرات يأتون بالماء في براميل خاصة وبالكاد يكفي هذا الماء للشرب. ومع ذلك لا مكان مخصصاً للاغتسال.

ويتلقى اللاجئون منذ الأيام الأولى الخبز مجاناً من السلطات الأنغوشية. ولم يحدث انقطاع في إيصال الخبز وماء الشرب بتاتاً. غير أن مساعدات المركز الفيدرالي لا تكفي إضافة إلى أنها تصل متأخرة جداً، فهناك الكثير من النساء والأطفال لم يتسلموا الأغطية والبطانيات ويلتحفون بملابسهم التي هربوا فيها ليلاً ونهاراً.

الحالة مع الخدمات الصحية صعبة. ويعمل قرب معسكر اللاجئين

في بلدة «سونجا» القريبة من الحدود الشيشانية مستشفى «الحماية»، وكان الاتحاد السوفياتي قد بناه لمتضرري الكوارث المحتملين وكأن القادة السوفيات في ذلك الوقت كانوا يدركون حجم الكوارث التي ستلمّ بهذا الإقليم.

يعمل في المستشفى أطباء أكفاء (أغلبهم حمَلة الدكتوراه) وتصل الأدوية إليه بانتظام حسب أقوالهم. غير أن هذا المستشفى يشرف على علاج المرضى من معسكر سونجا واللاجئين الذين استقروا داخل الأراضي الشيشانية فقط. أما الذين وجدوا أنفسهم داخل الأراضي الأنغوشية فلديهم الأمل في تلقي الخدمات الطبية من المستشفيات الأنغوشية فقط.

ولا تستقبل جمهورية أوسيتيا الشمالية ومدينة راستوف ومقاطعة ستافروبولسكي اللاجئين المرضى لأنهم «غرباء». ولمسنا انعدام الأدوية في المستشفيات الأنغوشية عملياً. واعترف الكادر الطبي بهذه الحقيقة مفسراً شحة الأدوية بالعدد الهائل من المرضى والجرحى الذين تستقبلهم يومياً.

وقال لنا الجرحى الشيشان من المدنيين بأنهم فقط تعرضوا للقصف المدفعي والجوي لأن المقاتلين يختبئون في ملاجئ خاصة مجهزة من قبل، ويعرفون طرق التخلص من القذائف. ويرى بعض الجرحى أنه بسبب أعمال المقاتلين ـ وحتى استقلال الشيشان ـ دُمرت بيوتهم.

وقال اللاجئون الذين التقينا بهم، إن الحياة في الشيشان بعد عام ١٩٩٦ كانت صعبة والأغلبية الساحقة من الشعب عاشت في فقر مدقع. لكن مهما كان الأمر فقد كانت ثمة حياة هادئة. ولا يعتقد

اللاجئون بأن القوات الروسية جاءت إلى الشيشان منقذةً من العصابات والإرهابيين بل لتحقيق مصالح روسيا الخاصة ولتدمير حتى مثل هذه الحياة الحقيرة!

وستبقى ١٧ ألف شيشانية بلا سقف طوال الشتاء الذي نحن فيه والذي سيليه إذا توقفت عملية العودة إلى الديار.

فقد قال لنا رئيس دائرة الهجرة الداغستانية رجب عبد اللطيفوف (الأخ الأصغر للوزير الفيدرالي السابق رمضان عبد اللطيفوف) إن عدداً كبيراً من اللاجئين الشيشان واللاجئين من القرى المدمرة التي احتلتها قوات بسابيف (وخاصة قرى بوتليخسكي) قد تم توزيعهم في المصايف ودور الاستجمام التي لا تدفئة فيها لأنها مخصصة للاستخدام في الصيف فقط. وزد على ذلك رفض الكثيرين من الذين تعرضت بيوتهم للتدمير مغادرة قراهم ويعيشون الآن بلا سقف يحميهم من البرد والصقيع. ويضيف: «جلبنا لهم بعض الخيام، لكن كميتها غير كافية علماً أن الشتاء في الجبال قارس جداً».

وحدثنا نائب رئيس إدارة منطقة بوتليخسكي شامل كريموف بقوله: إن اللجنة الخاصة أبلغت السلطات بتدمير ١٤٧٢ بيتاً بشكل كلي وإصابة ١١٧٥ بأضرار أساسية. وحسب القوانين والوعود ينبغي أن تتلقى المنطقة ٤٤٠ مليون روبل تعويضات للسكان عن بيوتهم المدمرة ولإدارة المنطقة لكي تعيد بناء البنية التحتية التي دمرت بدورها أيضاً. لكن كريموف يقول: «تلقينا اليوم ٦٠ مليون روبل فقط بمعدل ٢٥ ألف روبل لكل عائلة منكوبة، وهذا المبلغ غير كاف لإصلاح بيت». وأضاف: «يقولون لنا في وزارة المال

الداغستانية بأن النقود لم تصل من موسكو حتى الآن».

وصرح لنا رئيس دائرة الهجرة الفيدرالية فلاديمير كالامانوف بأن المساعدات تقدم إلى من تنطبق عليه حالة المهاجر المضطر (رفض نطق كلمة لاجئ لأن روسيا لا تعد مواطنيها لاجئين داخل أراضيها حسب معاهدة جنيف التي تعرّف حالة اللاجئ) وهي أربعة أنواع:

ـ السلفة بلا فائدة مئوية لمدة ١٠ ـ ١٥ سنة. ويتلقى الأشخاص من ٣٠ إلى ٤٠ ألف روبل.

ـ التعويض. وهذه مبالغ كبيرة تغطي نسبة ٧٠٪ من قيمة السكن المتضرر.

ـ تقديم شقة جاهزة للمنكوبين.

ـ توجد برامج «أطفال المهاجرين». والنقود المخصصة لها ليست كبيرة. ومع ذلك تساعد على إعالة الأطفال (الحديث لكالامانوف).

ويرى المسؤول الروسي، في الحديث الذي خصّنا به، بأن هياكل دائرة الهجرة الفيدرالية تحل كل هذه المسائل في الوقت الحاضر «وعلى الشخص تقديم البراهين المناسبة التي تثبت أنه فقد سكنه». وذكّر بأن نسبة ٩٠٪ من المهاجرين يمتلكون الوثائق المناسبة وقدّموها. وتجري، على حد قوله، الإجراءات الخاصة بإثبات الأضرار التي أصابت كل البيوت حتى في الشيشان. ووعد بالانتهاء من هذه القضية خلال أسبوع واحد! (نعتقد بأنه لا ينتهي منها حتى في ١٠ أعوام).

وقال إن إدارته تشرف على مراكز إسكان اللاجئين وهي مؤقتة في ١٧ جزءاً من روسيا الاتحادية. وأضاف أن «أكثر من ٩٠٪ من النازحين الشيشان رفضوا التوجه إلى هذه المراكز والابتعاد عن بيوتهم وفضلوا جميعاً البقاء في أنغوشيا وهذه الحالة مفهومة تماماً». ويعتقد بأن ٢٠ ألف شيشاني (غالبيتهم نساء) يرغبون الآن في العودة إلى مناطق نادتيلاتسيني وناورسكي وشيلكوفسكي في الشيشان.

وعن الخدمات الطبية قال: «أصرح بكل مسؤولية بأن وزارة الصحة ومستشفى» الحماية «مستعدة كلياً لتقديم المساعدات الطبية وعمل كل ما بوسعها من أجل تحقيق ذلك». لكنه اعترف بأن «الخدمات الطبية في أنغوشيا مضطربة جداً بسبب السيل الكبير من «اللاجئين».

وأفادنا وزير حالات الطوارئ الروسي سيرغي شايغو في حديث سريع في مطار عسكري روسي، بأن عودة اللاجئين بدأت بالفعل. وأضاف بأنه حسب الخطة الموضوعة في موسكو ينبغي عودة ٢٥ ألف شيشاني من أنغوشيا إلى الشيشان قبل ١ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٩. وتقضي المرحلة الثانية بعودة ١٠٠ ألف شخص قبل ٢٥ كانون الأول/ديسمبر.

وحسب أقوال العسكريين الروس فإنه يمر يومياً ٦٠٠ ـ ٨٠٠ شخص من نقاط المراقبة إلى أنغوشيا ويعود العدد نفسه إلى الشيشان. ورأوا أن العدد الأكبر أحياناً يكون للعائدين وأغلبهم نساء.

وحسب أقوال شايغو فإن الحكومة الروسية خصصت ٢٨٠ مليون

روبل من صندوقها الاحتياطي. وستستعمل هذه الأموال في تحسين ظروف سكن اللاجئين ولشراء الأدوية والمعدات الطبية والكتب المدرسية ودفع رواتب المدرسين والأطباء. وأضاف أن ٦٠ مدرسة بدأت تعمل في شمال الشيشان.

الأرض المحروقة بالنساء

عبرت بنا الدبابة المسالك الترابية أو بالأحرى الطينية الملتوية بين حشائش لم يطأها حيوان منذ «الاستقلال». تذكرت كيف مسحت عيني أرض القوقاز من نافذة الهليكوبتر وأدركت عبارة قالها شكسبير بأن أرض القوقاز معقودة في الأرض. لم أجد أدق وأوسع من هذا التشبيه فيما كانت الدبابة تمارس مع ساكنيها تمارين تخفيف الوزن.

كانت البيوت في ضواحي غوديرميس تقترب من التلال. لم ألحظ أية حركة لظل أو مخلوق عدا الجنود الروس. وتساءلت في مفكرتي: أين الناس؟ وقبل أن أنطق أجابني أحد رفاق الطريق: لا تستعجل فالمدينة غاصة بهم.

بدأت المدينة بمبان هرمة وكأنه لم يسكنها أحد منذ زمن سحيق،

والسهول مراعٍ لا نهائية للهواء. وبعد أن بدأت ملامح المدينة تعفر الفضاء أدهشني وجود مساحات هائلة من الأرض تغطيها الزبالة؛ لقد أدخلتني الدبابة إلى المدينة عبر مزبلتها! لكن هذا المنظر توالى حتى مركزها وكأني كدت أصرخ: الزبالة تتسلق جدران البيوت، ألا يحق التقشف بسعر بندقية وتنظيف المدينة. لكن الجبلي ينام مع السلاح أكثر مما ينام مع امرأته.

هذا ملعب المدينة، ساحات لكرة القدم وعمود منتصب لكرة السلة، أين الثاني؟ وجدته بعد عدة مطبات يستخدمه الجنود الروس حاجزاً للتفتيش؛ هكذا هو مرمي على الأرض فمن يا ترى يلهو في لعب كرة السلة في زمن الحرب.

بدأ الأطفال يسترقون النظر من فتحات الأبواب الخائفة وبدأت الحركة في الأحياء البعيدة عن المركز وظهرت تجمعات لرجال لا تضم أكثر من خمسة. علمت فيما بعد أن تجمعات مثل هذه غير مرغوب فيها كما أن التجول ممنوع حال مغيب الشمس حيث بدون صراخ تتكفل البندقية الروسية الحل.

عبرت الدبابة الجسر الحديدي الذي تفرعت تحته خطوط سكك الحديد. خطوط كثيرة متشعبة، وعندما زرت محطة القطار (أحب التعرف إلى المدن من محطاتها ومطاراتها) أخبرني الناس بأنه لا الحرب الأولى ولا الثانية لها علاقة بما حل في بنية المدينة، كل ما في الأمر أن كل ما هو موجود بقي على حاله منذ مطلع التسعينيات وتوالى نهبه. حتى كراسي المحطة اختفت والشبابيك والسكك صدئت بانتظار قطارها الموعود. وسألت عن سبب وجود كل هذه الخطوط من السكك الحديدية، فقال العارفون إن

غوديرميس كانت مركزاً تجارياً مهماً في القوقاز في الزمن السوفياتي. وعبرها تمر كل قطارات الحمولة والركاب التي تربط جنوب الأرض بشمالها وشرقها بغربها. كان الأذريون والكازاخ والأرمن والروس وكل شعوب الاتحاد السوفياتي يمرون من هنا. لا يمكن الوصول إلى موسكو من إيران وتركيا وبلدان ما وراء القوقاز إلا عبر بوابة غوديرميس. وأدركت أن لهذا المدينة سحراً عجيباً فعبرها تمر كل قوافل الدنيا فلا تُستغرب نظرة شعبها المختلفة للأمور وتكدس المثقفين والعلماء الشيشان فيها. حالها إذن تشبه حال كل محطات الكون التي تضم الاتجاهات الأربعة.

ماذا كان يضير الجبليين في غروزني لو استمرت غوديرميس بهذه الحيوية؟ لماذا لم يهتم أحد بهذه المدينة وجعلها ترتمي بأحضان الروس؟ ومع ذلك قتل ٤٠ شخصاً من المدنيين بسبب القصف الروسي! كتب إذن على سكان هذه المدينة المحرومين من كل شيء الموت فقط. قال لي عجوز شيشاني عبارة قاسية وحزينة: تسلّمنا حصتنا من الموت! لكن حصتهم في الحياة لا تقلق بال أحد. لا المشركين ولا المؤمنين.

والغريب أن سلطات غروزني التي تشغف بعبارات الاستقلال لم تكلف نفسها وتستبدل اللوحات المعلقة على المباني الحكومية والأسواق والتي ما زالت جميعها باللغة الروسية! فماذا يعني الاستقلال إذا كنت لا تملك الكهرباء والغاز والماء وتتعامل بالنقود الروسية وتحمل الجواز الروسي ووثائقك كلها بالروسية وكتبك المدرسية وأحاديث الناس في الشارع وطريقة حياتهم وملبسهم ونظامهم اليومي كذلك؟ حتى الصلاة يؤدونها باللغة الروسية! أين الاستقلال إذن؟ قال لي شاعر داغستان الأكبر رسول حمزاتوف

مرة: «لماذا أستقلّ عن جاري؟ سأحتاج إليه وسيحتاج إليّ. سيعينني على مصائب الدهر وسأعينه، حيثما أولّ وجهي أجده أمامي. جاري هو أخي. غباء وكذب هذا الاستقلال».

وقال بعض الناس: عشر سنوات لم يطبعوا لنا النقود ولم نحمل غير البطاقات والجوازات الروسية ولم نعرف الحاكم والمحكوم وكل ما رأيناه علم وحيد وبندقية في كل منعطف.

توقفت عند طابور غير منظم لنساء حول علبة صفيح رفع عليها العلم الروسي. مئات يتدافعون بلا هوادة وكلل. سألت إحداهن عن سبب هذا الزحام، فتبين أنهن يردن الحصول على البطاقات الثبوتية.

هكذا يتدافع الشيشانيون بالمئات من أجل الحصول على بطاقة تثبت وجودهم في مدنهم من المحتل!

وفي الوقت الذي كانت تدك فيه المدفعية والطائرات الروسية غروزني ويتدفق اللاجئون وينتشر الموت في كل متر على الأراضي الشيشانية ويدخل كل بيت، أقام القائد الميداني الشيشاني شامل سلمان بساييف حفلة زفافه على الآفارية (من داغستان) كوزيت بفخامة وبذخ. وهذه الزوجة الثالثة بالحساب الشرعي. وحضر الحفل كل أفراد جماعته المسلحة وسياسيون «كبار» وبعث الرئيس أصلان مسخادوف بممثله ليهنئ قائد الجبهة الشرقية الذي تتهاوى جبهته تحت حوافر الجنود الروس.

وفسر بساييف سبب عرسه الفخم وزواجه أصلاً في هذا الوقت بأنه

يريد أن يثبت للعالم بأنه: «وحّد القيادات الشيشانية أمام العدوان الروسي».

وقد يفسر كلامه على أساس أن زواجه من آفارية يعني اختلاطه بأكبر قومية داغستانية، الأمر الذي يعطيه رجالاً ومالاً إضافيين من النسب الجديد. وقد يعطيه السبب في القفز على محج قلعة في الوقت الذي يريد متى تعرض أنسباؤه للضيم هناك. لذلك قال في حفلة الزواج عبارة ليست للمزاح: أضيف لنا ٧٠٠ مقاتل جديد.

ولا بد أن يحذو كل رفاق بساييف حذوه في هذه الخطوة غير العادية ويتزوجوا من كل عشائر القوقاز، فالزواج الآن وليس القانون الدولي ومصالح الدول الكبرى والجيوبوليتيكا من يحكم هذه البقعة المعقودة بالأرض. قال لي أكثر من شخص إن بساييف ليس شيشاني الأصل بل هو آفاري من داغستان وفوق ذلك هو يعلن ذلك بتفاخر!!

٩٠٠ غرام طحين

وذكرت ربات البيوت أنه تم توزيع ٩٠٠ غرام من الطحين وبعض المعلبات لكل عائلة. وسألتهن: هذه الكمية يومية؟ فأجبن ضاحكات: لا، هذا ما أعطونا إياه منذ وصولهم حتى الآن! قلت: كيف؟ ماذا ستفعل عائلة كاملة بـ ٩٠٠ غرام من الطحين؟ وفسّرن ذلك بأن الأمر كان من متطلبات الدعاية حيث حضر كل مراسلي القنوات الروسية ليصورونا ونحن نتسلّم هذه المساعدات!!

وأشارت النسوة إلى أنهن يعانين من انعدام الماء. وتصل شاحنات

تحمله لغرض بيعه وفي أحيان كثيرة لا يجدن النقود لشراء الماء الذي تحول إلى وسيلة للتجارة.

أما الأدوية فهي تباع في الشوارع بأسعار غالية حيث مستشفى المدينة لا يعمل منذ زمن طويل. ولهذا السبب هاجر الأطباء المحليون ولم يبق طبيب واحد في المدينة.

ماجستير بلا عمل

وقالت فتاة شيشانية تقف مع أمها بأنها حاصلة على شهادة الماجستير بالاقتصاد وتحاول جاهدة منذ سنوات البحث عن عمل. وهمهمت بأن البلد الذي يلعب بمقدراته من لم يكملوا حتى المدرسة ولا اقتصاد فيه، لا يحتاج إلى ماجستير في الاقتصاد. وأضافت أنها أخيراً حصلت على عمل بعد أن افتتحوا إدارة المدينة (المحافظة) وستلتحق به ابتداءً من يوم غد، مشيرة إلى أنها ستقطع مسافة كيلومترين مشياً يومياً ذهاباً وإياباً ومع ذلك فعلامات السعادة تبدو عليها بعد حصولها على عمل أخيراً رغم أنه إداري بحت ولا يتعلق باختصاصها.

الحكايات الروسية

وكانت طفلة مع أمها تحمل قصصاً باللغة الروسية. سألتُ أمها هل تتقن ابنتها اللغة الروسية؟ أجابت بأنها معلمة وعندما كانت المدارس تعمل كان الأطفال يحبون مادة اللغة الروسية. وفسرت ذلك بأن كل الكتب ومجلات الأطفال وأفلام الصور المتحركة بهذه اللغة. ونادراً ما تجد أحداً يتحدث باللغة الشيشانية

سوى بعض الشيوخ فيما بينهم.

لماذا لم يرحلوا؟

وتعود أسباب عدم رحيلهن من المدينة إلى قلة مواردهم المالية، لأن الوصول إلى أنغوشيا يتطلب أكثر من ألفي روبل وهذا المبلغ غير متوفر لمعظم من بقي في المدينة. وقال شيوخ إنهم يشعرون في بيوتهم كأنهم سلاطين ويرفضون مهانة اللجوء حتى لو ماتوا في دورهم. فيما قالت بعض النسوة بأن لديهن أطفالاً كثيرين ورضعاً لا يتحملون الرحلة إلى المجهول. كما توجد أسر فيها رجال ونساء طاعنون في السن لا يقوون على مشاق الطريق ومن المستحيل تركهم وحدهم.

ذكرت لي بعض النسوة في المدينة فيما بعد أنهم عندما شاهدوا طائرتنا أمعنوا النظر فيها وكذلك الأطفال الذين حسبوها لعبة بدلاً من مدينة الألعاب المبنية في الأوقات السوفياتية والتي لم يكلف أي نظام حل في الشيشان طوال التسعينيات نفسه فتحها أمام الأطفال رغم أن الكهرباء كانت تصل إليهم بالمجان من روسيا.

لم يفكر الجبليون بضرورة هذه الأشياء للأطفال. كان يهمهم فقط تدريب الأطفال على حمل السلاح منذ سن السابعة؛ هذه متعتهم الوحيدة وربما هذا الشيء الوحيد الذي يدركونه في الحياة ويريدون بناء دولة عصرية! ينظر الأطفال بغرابة إلى الدولاب الطائر ولا يعرفون ماهية وجوده، فهذا الدولاب لم يتحرك منذ عشر سنوات، يظنونه حيواناً خرافياً كالذي يسمعون عنه في الحكايات الشعبية. أحسب أن وقوف هذا الدولاب هو وقوف الزمن في الشيشان منذ

انقلاب دوداييف في عام ١٩٩١ وحتى الآن. لقد توقف الزمن في الشيشان كلياً.

وهكذا نظر النساء والأطفال إلى طائرتنا، كما أخبروني فيما بعد، بهدوء، على العكس مما كان ينتابهم من هلع في الأسابيع الماضية عندما يهرعون إلى أقبية دورهم خوفاً من القصف الجوي. كان أزيز محركات الهليكوبتر كافياً لطرد الحياة من المدينة.

دمرت غوديرميس في الحرب السابقة ولم تتم إعادة بنائها بالطبع. لكنها احتفظت بهيكل المدينة الأساسي، ما تحتاج له فقط الأموال والنزاهة والإخلاص لكي يتم ترتيب فوضاها.

وعندما تحررنا من ضجيج الهليكوبتر وهبطنا في حقل كبير يطل على المدينة استُخدم مطاراً، اقترح سيرغي أن أصل إلى المدينة بواحدة من السيارات العسكرية. وبعد مشي نصف كيلومتر وسط الحشائش (كانت فكرة انفجار لغم أرضي تلازمني) رأيت حافلة مخصصة لنقل الجنود. وبعد صعودي إليها اكتشفت أن زجاج نوافذها المغلقة من القذارة بحيث يجعل التصوير أمراً مستحيلاً خاصة أن الزجاج قد ينكسر ولا تفتح النوافذ. وأظن أن لا أحد تجرأ ونظف هذه النوافذ أو فتحها منذ تم تصنيعها قبل نصف قرن.

عدت أدراجي إلى الشارع بعد أن شممت رائحة دبابة قادمة باتجاهنا. ورغم كل المحاذير والممنوعات وعبارات القنص، تسلقت إليها واستقبلني الجنود على متنها بفرح من باب تغيير الجو الرتيب الذي تعودوا عليه.

إذن انتزعت فرصة هائلة لرؤية المدينة على دبابة مكشوفة، وفي جوهر الأمر فرصة التقاط الصور التي لم يرها أحد قبلي. كنت أعلق الكاميرا في عنقي وقد أخفيت في الجيوب العليا من سترة الحرب كاميرتين صغيرتين . ومع ارتجاف أصابعي (طبعاً من وعورة الطريق لا من الخوف لأني نسيته تماماً كما قلت للطيار) بدأت خطواتي الجديدة في حقول الموت الشيشانية.

الكردية

«لم يكن هناك نقص في الخطيبات
ففي منازل الفقراء
كانت هناك دائماً فتاة زائدة»

ـ إدواردو غاليانو ـ



شجرة المرأة الكردستانية

فيما تبدو كالربيع، أو كظهوره الممكن، تستوفي المرأة في كردستان صفة موقع الإشعاع الأول من أي شمس مخصصة من طاقة الكون لتجلو الظاهر الكلي وتعد بالأبدية.

وكحالها أبداً في منعطف الأرض الشرقي عُدّت استتباباً للخطيئة وعجلة عربة المجتمع لا دفّته، جماد الخوف واللذة الحمقاء، قوس قزح يتقشف بنوره، خيوط رمل مهملة في شواطئ الرجال. مقتولة بسكاكين القوم وعيونهم. وفي كل انقلاب جذري لتصدير القمر للأمم الأخرى، تسنّ القوانين من ألفها إلى يائها حولها لا لها، كأنها خيال يخمنه علية القوم، ظلال شارد لا كيان. سخّر التقدميون والرجعيون كل عللهم وعقدهم الباطنة والعريقة، المخفية والتي في طور الحدس، لزخفرتها وتلوينها وطلائها منذ وجودها في الرحم عبر المشيمة، بأي شكل، عدا الثناء الذي يليق بها.

مرضعة الجيوش

للقيادة الحكيمة فكر مؤنس لم يطرأ على بال أي معاصر وهو زيادة عدد نفوس الأمة بأي شكل. فما أن يصرخ الذكر العراقي في جوف أمه حتى تعد له استمارة «جيش القادسية» التي تفرعت إلى أقسام انتهاء بجيش القدس. وعليه لا بد أن تفرخ المرأة رجالاً ليسوقهم البطل القومي إلى أتون الحروب، هذا واجبها الرئيسي وهذه حيلتها المتاحة. لذلك، ضرباً بحائط قوانين الأحوال المدنية أصدر القائد العام للقوات المسلحة جداً أوامره بمنح من يقدم من الرجال على الزواج الأموال لمن يقدم على الزواج. وأصدر قراراً آخر بزيادة الإنجاب بكل الإغراءات الممكنة المالية والسكنية.

قتلوهن بالقرارات

وتقود الدولة بنفسها على أعلى مستوى حملة تشبه حملات قتل الكلاب السائبة التي كانت تجري غطاءً لملاحقة المعارضين، وهي حملة تنظيف المجتمع بجمع عشرات النساء لرجمهن بالرصاص وتمزيقهن أمام الملأ.

هم أنفسهم أحفاد محافظ العسس الذي كانت شرطته تهرول في مركز مدينة السلام حاملة صفائح الصبغ لتطلي بها أية نسمة ظاهرة من أرجل النساء. وهم الذين كانوا يطردون الطبيب والمهندس المختص من البلاد ويصادرون ممتلكاته لأنه فضل الزواج من غير عربية. كانت هذه الإجراءات مدعومة بقوانين الثوار وحدثت بعد أن نزل البشر على سطح القمر وليس في عهد الكهوف.

هذه عقلية الناس الذين سنّوا قوانين الأحوال الشخصية في العراق وهم أنفسهم الذين شجعوا ما يعاني منه البلد الآن بما يسمى لا قانوناً ولا شرعاً «غسل العار». تلك الجرائم التي يحكم في شرفها أو عدمه مفوض شرطة مرتش ومتخلف ويحمل كل الأمراض الزهرية والنفسية.

وثمة جرائم التطهير العرقي والاغتصاب والاعتقال والتعذيب واستخدام المرأة لابتزاز رجال العائلة وسوقها إلى المعتقلات الجماعية كما جرى في حملات تجفيف الأهوار والأنفال التي كانت فيها نسبة المرأة الأعلى في هذه الممارسات القمعية.

وحشروا المرأة في الأعمال الخدمية اضطراراً بعد أن ساقوا معظم الرجال إلى جبهات حروب التحرير، وتلقّت النساء مقابل العمل المشابه للسخرة أجوراً زهيدة.

وما أن فرض الحصار حتى تدنّى مستوى دخل العائلة العراقية بنسبة ٩٥٪ أو أكثر وتدنى معه الوضع الاجتماعي برمته على مستوى التعليم والرعاية الصحية والثقافية. فقد هجر الرجال الأعمال في الدولة لكسب الرزق خارجها بعد أن أفلست، واضطرت المرأة لقبول أي عمل في الدولة لدعم وضع العائلة والأبناء وحرصاً على عدم ضياع البطاقة التموينية، حتى أن السلطات العراقية اعترفت بأن المرأة العراقية تدير ٧٠٪ من شؤون الدولة. كذلك فالكثير من النساء يمارسن أعمالاً لا تليق بهن ولا بأعمارهن أو تحصيلهن العلمي. وباعتراف السلطات أيضاً أخذت المرأة على عاتقها توفير ٥٠٪ من مستلزمات العائلة.

وبسبب شلل المجتمع تعاني المرأة في البلاد عموماً من مشكلة ارتفاع معدلات الطلاق وإحجام الرجال عن الزواج لأسباب مادية، مما أدى إلى شيوع ظاهرة العنوسة والوحدة التي تؤثر كثيراً على النساء حتى من الناحية البيولوجية، فضلاً عن النفسية.

وحتى المتزوجات العاملات منهن وغير العاملات لا تتفتح الحياة لهن بأي شيء عدا الغسل والتنظيف وإعداد الطعام، ولو تجاوزت ذلك وأرادت شم الهواء قليلاً، فلا متنفس مثل حضور منتدى أو سفرة أو لقاء عائلي جماعي، لأن اللقاءات العائلية انحسرت بسبب تكلفتها. لذلك تضطر للعودة من جديد إلى المطبخ وبعده ترمي بجسدها المتعب.

حركات تصحيحية

ولأن المرأة في كردستان ساهمت منذ انطلاق الثورة الكردية جنباً إلى جنب مع الرجل وكان دورها واضحاً ومؤثراً سواء في المدينة أو الريف لدعم المسيرة الشاقة للمقاومة، ولا سيما أن هذا الدور تطور عندما احتضنت كردستان قوى عراقية معارضة كثيرة وأصبحت قاعدة انطلاق تستند إليها كافة الحركات العراقية المعارضة الساعية لإزالة الدكتاتورية من البلاد، فإن قادة الإقليم ساهموا منذ استقرار أوضاعهم وتشكيل إداراتهم الذاتية في إزالة بعض الغبن الذي تعرضت له المرأة بسبب قوانين الأحوال المدنية الغريبة المفروضة من المركز.

وفي هذا الشأن بادر الأمين العام لحزب الاتحاد الوطني الكردستاني جلال الطالباني (قبل أن يصبح رئيساً للبلاد) في قيادة حركة

تصحيح قوانين الأحوال المدنية لإعطاء المرأة دورها الحقيقي في المجتمع الكردستاني وفق المبدأ الإنساني المعروف بأنها تمثل نصف المجتمع. وفي ضوء هذا المبدأ جرى تصحيح كل القوانين التي من شأن تصحيحها وضع المرأة على طريق التطور الاجتماعي.

وفي أربيل قاد الحملة رئيس الحكومة نيجيرفان البرزاني بالتعاون مع البرلمان وأدت هذه الجهود إلى إلغاء الكثير من القوانين والتشريعات التي كانت سائدة في العراق مثل غسل العار، ومنح المرأة الحق في العمل السياسي وبناء المجتمع وغيرها.

ثمار الانتفاضة

وكانت انتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ نقطة تحول جذرية في حياة المرأة في كردستان. فما أن ظهرت البوادر الأولى للجو الديموقراطي، حتى أتيحت فرص كبيرة للمرأة للظهور ومغادرة مقعدها الحجري بين الجدران الأربعة وذلك بالمساهمة الفعالة في جميع مجالات العمل وجوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والجماهيرية. فأصبحت وزيرة وعضواً في البرلمان وضابطة وقاضية وعميدة كلية وغيرها من المناصب التي كانت على الدوام في العراق حكراً على الرجال.

وازدادت فرص تمثيلها في التنظيمات السياسية والاجتماعية والثقافية وساهمت في تكوين الكثير من الحركات والاتحادات والمنظمات والروابط النسوية، حتى إنه لم تعد المشكلة مشاركة المرأة في هذه التنظيمات، بل في توحيد الكثير منها التي توالدت مع ظهور الأحزاب وانتعاش حرية التعبير لغاية وصول عدد التنظيمات النسوية

في كردستان إلى ١٢ رابطة أغلبها واجهات لأحزاب سياسية.

يوبيلهن ذهبي أيضاً

في ١١ كانون الأول /ديسمبر ٢٠٠٣ احتفلن بالذكرى الخمسين لتأسيس اتحاد نساء كردستان. وهذا التنظيم أقدم رابطة نسوية في كردستان العراق وانبثق عن «جمعية النساء المناضلات» التي تأسست عام ١٩٤٦ لدعم ثورة البيشمركة آنذاك. ولم تفكر النسوة المنضويات في هذا التنظيم وقتذاك بحقوقهن الخاصة، بل انخرطن في حركة التحرر الكردية عموماً ولم يرفعن أي شعار خارج المطالبات بحقوق الكرد العامة.

دورهن في ذلك الوقت كما حدثتنا السيدة شيرين آمدي الأمينة العامة لاتحاد نساء كردستان، انحصر في جمع التبرعات وخياطة الملابس الخاصة للثوار وإعداد القواعد لاستراحتهم وإخفائهم أو إخفاء أسلحتهم عند الضرورة وغير ذلك من ممارسات النضال السري.

وكانت المرأة في كردستان في مقدمة صفوف المضحين في كل صفحات حركة التحرر الكردية، لا سيما في مجزرة حلبجة وضحايا الأنفال حيث كانت نسبتهن تفوق الرجال بكثير. وأثمرت جهود اتحاد النساء بعد الانتفاضة والاتصالات التي أجريت مع الجبهة الكردستانية حصولهن على سبعة مقاعد في برلمان الإقليم. وعبرت شيرين آمدي عن عدم رضاها على هذا العدد الذي رأته قليلاً مشيرة إلى أنهن يطمحن إلى شغل ٢٥ مقعداً في البرلمان (من أصل ١٠٠).

سألنا الأمينة العامة لاتحاد نساء كردستان ـ التنظيم النسائي للحزب الديموقراطي الكردستاني ـ عن سبب تشتت جهودهن بوجود ١٢ رابطة نسوية وكيف يكون للنساء اتحاد بوجود هذا العدد الكبير من الاتحادات، فأجابت بأن المنظمات النسوية في كردستان تناضل من أجل حقوق المرأة في كردستان وليس لمصالح أحزابها فحسب. وسعياً منهن لتوحيد صفوفهن أنشأن مركزاً مشتركاً ضم جميع التنظيمات النسوية العاملة في الإقليم يلتقين أسبوعياً ويحضّرن المشاريع لتقديمها إلى برلمان كردستان.

وفي هذا الاتجاه أيضاً يسعين الآن إلى تأليف لجنة لدعم حقوق المرأة يقبلن حتى الرجال فيها.

تعديل القوانين

درست النساء الناشطات قوانين الأحوال الشخصية وقوانين العقوبات العراقية المقرة في الخمسينيات والستينيات لتقييم مسائل تخص الطلاق والميراث والنفقة وغيرها. وقد أدت دراستهن إلى تقديم مشروع تضمّن تعديل ٢٣ فقرة من القوانين المذكورة.

وتمكنّ مثلاً، من إلغاء المادة ١٢٨ الخاصة بغسل العار والمادة ٣٧٧ الخاصة بالخيانة الزوجية التي كانت لا تسمح للمرأة برفع دعوى على زوجها في حالة خيانته لها، بينما المادة كانت تجيز للزوج فقط رفع الدعوى على زوجته في حالة خيانتها أو حتى لمجرد سوء الظن بذلك.

وقالت شيرين آمدي بأنه منذ الخمسينيات لا نص قانونياً في

العراق يجيز تعدد الزوجات، حتى أصدر صدام حسين قراراً في عام ١٩٨٧ أجاز فيه ذلك، بل وقدم مكافآت لكل من يتزوج أرامل الحرب. وترى آمدي أن هذا القانون أصاب النساء في كردستان بضرر كبير واستطعن تعديل هذا القانون وإرجاعه كما كان معمولاً به في السابق حيث وجود ضوابط عديدة لإجازة تعدد الزوجات.

ثلاثة حصارات

وعن دورهن في مساعدة عائلات المهجرين والمفقودين وأرامل الحرب وغيرهن من ضحايا التنكيل قالت شيرين آمدي بأنهن في كردستان يعانين من ثلاثة حصارات وحسب التسلسل الذي ذكرته: الحصار الدولي وحصار دول الجوار والحصار العراقي. وتحدثت عن المآسي الكثيرة التي عانت منها المرأة بصفتها مركزاً للعائلة قبل عام ١٩٩٦، أي المرحلة التي سبقت تنفيذ القرار ٩٨٦ في كردستان. لم تهتم المرأة قبل هذا التاريخ برأيها بكل النشاطات والفعاليات التي كانت تجري، مثل مكافحة الأمية والنشاطات الثقافية والاجتماعية وغيرها. إلا أن الوضع تغير ما أن شهد الإقليم صحوة اقتصادية وتحسن وضع الناس.

وبالنسبة لعائلات المفقودين في حملات الأنفال الذين وصل عددهم إلى ١٨٢ ألف شخص صرّحت بأنه تم تأليف لجنة بمساعدة البرلمان لحل كل الإشكاليات الحقوقية والشرعية التي تعاني منها نساء المفقودين وأطفالهم الذين كبروا بعد سنوات عديدة من غياب رب الأسرة. وأصدر البرلمان في ٣٠ تموز/يوليو ١٩٩٩ قراراً عدّ فيه كل الرجال من ضحايا الأنفال متوفين لكي يتسنى لعائلاتهم التمتع

بحقوقهم، أي لتتمكن نساء المفقودين من الزواج. وأجري تعديل بهذا الخصوص في قانون الأحوال المدنية. لكن من الجانب السياسي يعد الرجال مفقودين حتى حصول قيادة الإقليم على إشعار رسمي من الحكومة العراقية يبين فيه مصيرهم الحقيقي والنهائي.

على الصعيد نفسه، ألّفت الناشطات «مؤسسة الشهداء»، وهي من أكبر المؤسسات الاجتماعية في كردستان، تهتم برعاية عائلات الشهداء بما في ذلك صرف المرتبات وتوزيع قطع الأراضي والبيوت السكنية عليهم وغير ذلك.

أما مشاريع رعاية الأمومة والطفولة، فقد شارك وفد من اتحاد النساء في المؤتمر الدولي لرعاية الطفولة الذي عقد في المغرب بمشاركة ١٨٢ دولة. وأكدت آمدي أنه «حسب القرار ٩٨٦ هناك ملايين الدولارات مخصصة لرعاية الطفولة لكنها غير واضحة ولم نرها. فالمرأة الكردستانية ليست بذلك الوضع الاقتصادي الذي يجعلها تؤمن حالة طفلها الصحية بشكل مناسب». وفي هذا الجانب أسسن ما أطلقن عليه «صندوق الأسرة» لرعاية الأمومة والطفولة بالتنسيق مع منظمة اليونسيف. ويعمل في هذا الصندوق نحو ٦٠٠ باحثة اجتماعية يتابعن شؤون عشرات الآلاف من العائلات في كردستان.

مواجهة العنف

ويسعى اتحاد النساء إلى مواجهة العنف الذي تتعرض له المرأة في الأسرة والمجتمع وقد شاركن في مؤتمر عقد في باريس لمعالجة هذه الظاهرة. وعقدن مؤتمراً أكاديمياً لمناقشة هذه المشكلة في الإقليم.

ولفتت الأمينة العام لاتحاد النساء إلى ظاهرة أخرى برزت في الإقليم وهي إحراق النساء لأنفسهن نتيجة الظلم والغبن والمعاملة السيئة التي يتعرضن لها.

وضمن الإجراءات التي قمن بها في هذا المجال تأسيس مركز لحماية ضحايا العنف، تلجأ إليه الكثير من النساء اللواتي يعانين بشكل أو بآخر من العنف والظلم. يحتوي المركز ضمن ما يحتويه على عيادة للطب النفسي يعمل فيها متخصصون، إضافة إلى عدد من الباحثات الاجتماعيات.

جمع الشمل

طرحنا مسألة هجرة الشباب ـ عماد المجتمع وأساس العائلة المستقبلي ـ وتأثير ذلك على بنية المجتمع في كردستان. كذلك تأثير ذلك على الزوجات الحديثات، اللاتي يهاجر أزواجهن لكسب لقمة العيش ويبقين بانتظار إكمال معاملته في بلاد الغربة، ريثما يتسنى لهن اللحاق به حسب قوانين جمع الشمل. وبروز مسألة الاقتران بالأجنبيات وترك الزوجة الأولى والأطفال في الإقليم.

ركزت شيرين آمدي على أن السبب يكمن في الوضع الاقتصادي وعدم انسجام الواقع مع طموحات الشباب خاصة. وتحدثت عن مسائل الخطوبة والزواج عن طريق الصور أو حضور الرجال المغتربين ليعقدوا الزواج على عجل لأسبوعين أو أقل ويسافروا دون اصطحاب الزوجات. ويؤدي ذلك إلى الكثير من المشاكل ورفع دعاوى الطلاق الغيابي وغيرها. وكان من نتائج هذه الممارسات ظهور العنوسة التي حددت نسبتها بنحو ٢٥ ٪ من النساء في

كردستان، الأمر الذي جعل الكثير من النساء يضطررن للاقتران برجال كبار في السن.

حلالات المشاكل

قلنا للأمينة العامة لاتحاد النساء بأن من الواضح أنكن تدسن أنفسكن لحل الكثير من المشاكل حتى تلك التي لا علاقة لكن بها، أجابت بأنهن يحللن مشاكل الرجال أيضاً. وحدثتنا عن الكثير من الحالات التي يزور فيها الرجال مقر اتحاد النساء ليطرحوا مشاكل في أحيان كثيرة خاصة بالأسرة وحتى عاطفية. وتضيف بأنهن يتدخلن في حل عدد كبير من المشاكل الأسرية بصفة مرشدات. زد على ذلك لديهن مركز خاص لحل هذه المشاكل تحت اسم «بيت خانزاد» (خانزاد هي أميرة كردية).

وخلال اصطحابنا في زيارة إلى المركز ـ البيت، أعدّت لنا المرافقات وجبة سمك «بيتية» وكانت وجبة السمك الأولى لنا في كردستان بصحبة دزينة نسوان.

عربة الرغبة

في طريقنا إلى السليمانية صعوداً نحو جبال أزمر باتجاه الحدود الإيرانية، حملتنا نوايا نصفها جيوبوليتيكية ونصفها الآخر جيوعسكرية! وفي لحظة انفراد محجوزة للتفرغ بالتفكير في ما سيحصل ومحاولة ربط الدقيقة بالأخرى ومراقبة صخور الجبال وتفحص ذكرياتها وإسقاط النظر من فوق نحو ادعاءات الوديان بخضرة تسترعي الجذب، خطفتنا سيارة بيك أب مسرعة لم يفكر مصمموها أنها ستحمل هذا القدر من الجمال عدداً وعدة، نفّاذ لا يمكن عدم الاكتراث به، حفيف عار من تكسر أغصان النشوة. مشاعر فياضة تنغمس في رغبتي لسبر أغوار هذا المسلك.

جوقة أو كومة من فتيات يتطاير شعرهن ملتصقاً بوجدان الريح وعطش العدسة، رعدة من تذبذبات عجيبة بين الصوت والفرح الرحب ومنافسة السعادة الأخاذة اللانهائية تأمرني باللجوء إلى سر

هذا التسلط والحاجة إلى أعين إضافية للتعمق في ماهية المشهد.

للدهشة التي لا يفصح عنها والبهاء المنصرم والارتجاف الوقاد، لم يسمح الاندفاع بحصر هذه البهجة فقد كان الخطاب واضحاً: حلّة من فتيات مبتهجات تفطر أغانيهن ورقصاتهن وحدة القبج، الطائر الكردي الذي لا يضلّ أبداً والسارح المرح في غضون هذه الجبال التي منع فيها الصيد بأوامر بيئية عليا.

هل أقول إنهن سرب من نحل، فراشات، هل أصفهن بحروف عربية، كردية، لاتينية؟ لا فقد ضلّ اللسان دون تأنيب، لأنه العالم يتلألأ بتطاير خصلاتهن وتساقط فرحهن على ذؤابات المجرى العميق ليعيد للعالم هيبته ويعوض للسلام فخره الضائع.

اتبعهنّ وحافظ على مسافة الشوق أيها الرفيق السائق. هكذا تبعنا المشهد دون اعتراض: صعدنا أكثر من جبل وهبطنا دون شرفة، وبقي الخمار يتطاير والأصابع تتدفق بالإيقاع والألسن بالشدو العذب والأكتاف بالتأرجح والأوساط بالتمايل، حتى تلك اللحظة التي لاحظت دهشتنا أصغرهن لترمي الجميع بإشارة الصورة المنعكسة وراء زجاجة الحياة المنطلقة خلفهن.

التفتن بحركة غير متفق عليها لا تغيب عن ناظري ليجدن إصراراً لعدسة لا تكلّ من حمل كل هذا الفرح. لم يختزلن أطوالهن أو يكففن عن الرقص لنظراتنا المتجسسة على صفائهن، بل العكس غير المتوقع حمى استرخاءنا: علت قاماتهن وارتفع الغناء وبانت الثياب التي لم تكن ترى وانتفضت الأجساد بتلقائية.. وفي غور تلك الألفة والتصالح غير المعلن، عادت خضرة الروح للخروج من نطاق

التحسس لتتدلى نحو ثيابهن المائجة، غير هيابة بالصخور الحمراء لنفق جبلي مفروض كالعدم.

أستمع لأصوات أو نغم أو ظل شعر لا تترك السكون بخير فأسبر غور تلك الحياة التي أحافظ عليها حتى هذه اللحظة. تداعبك الألحان لتسترجع كيانك العابر بالصدفة إلى هذه الأرض المقررة وذيول الحقول التي ليس لها صاحب:

كردستان مرّي مسرعة فوق المروج

أنت الحياة التي عليّ أن أحياها

أيقظ الحفل الذي أحيتْه أجساد محصول نما بالفطرة حلاوة السفر والتراص العالق بآنية زهور عملاقة بحجم جبال أزمر: يلوحن إليك بخيوط أصابعهن أو أكفهن المحنّاة لكي تتلو معهن أنشودة الصبية التي أنجزت اكتمالها بانتظار أن تطرق الباب لتقول لك: تفضل!

بارْك الحب

كان في ما مضى، حامية للفيلق الأول الذي عاث في هذه الأرض خراباً. وكانوا يدفنون في مكانه كل من يعدمونه في البلاد وكل من يمر دون أن يلقي التحية على جدارية للقائد أو يبتسم لطرفة له أو تتكاسل أصابعه عن التصفيق عند الضرورة.

حوّله غيارى المدينة إلى واحد من أجمل المتنزهات في كردستان وأطلقوا عليه رسمياً «بارك آزادي» (منتزه الحرية)، فيما يعرفه العامة بـ «بارك الحب».

طالت الأشجار على أعقاب المعسكر وشقت الترع الجميلة بدلاً من مراحيض الجنود وتسلقت مدرجات «هايد بارك» المدينة في ساحة الإعدام.

على هذه المنصة يمكنك قول ما تحب، وبقدر ما تملك من طاقة تستطيع الصراخ بوجه من يظلمك وإن منعوا قصيدة لك من النشر، فاجعلها هدية لأوراق الشجر النابت بحفاوة.

وفي المساحة الداخلة في عمق البارك، تجد بحيرة، ربما شغلت مساحة مستودع سابق للذخائر الحية في جوف الناس.

لم يقتلع أحد أحواض الأزهار التي رممت عيوننا قبل أكثر من عام ولم يفكر أحد حتى بالسعال، كي لا يزعج طيراً غافياً في عش مؤسس بالطمأنينة.

هو ذا المكان الذي يلتهم نهار المحبين، وفيه يودعون يوماً من حياة الشمس ويتجرأون في قول ما لا يستطيعون في الكلية والمعمل والمستشفى، وفي فضائه تتحرك الأنامل للمرة الأولى معلنة ما لا يستطيع اللسان نطقه.

فيه تخف الثواني الدقائق وتحس الساعات الأيام، مقترب للحنان والدمعة الطافرة من الفرح أو الشك، كيفما عمل القلب جاهداً لتتلوى حروف البدايات والمسكن ــ الحلم.

وميض كالدجى، يجر لحظتنا إلى فتاتين وحيدتين، ربما أو بتنسيق ما، لا يكونان كذلك بعد برهة، لكنهما في اللحظة الخارقة للعدسة ابتسمتا بغنج وردّتا التحية بطرب، يا لهذه العذوبة المدوّخة!

بين التراص اللامتناهي للعبارات الشهية، يشكل ثلاثة شيوخ محاولة لاستعادة السنوات المريرة ولحظاتها السعيدة، أشاروا بأيديهم

وأفئدتهم متوادّين مع فتنة الضياء المنطلق مع الصورة.

فيما ينزو في شوارع الحب من كل زوجين اثنين بأرواحهم الصامدة من تذكارات المعبود وعطر عنقها المحمر كعيد، أو للعينين اللامعتين من الدهشة أو الدموع.

مزاج الأطفال هو الآخر هنا ميّال للرومانسية وعبثاً يسمعون تحذيرات الوالدين الشابين اللذين خطّا في هذا المكان موجتهما الأولى.

تستمر الشمس بالنزول لتغطيها سحب رقطاء، فتنسحب أقدامنا لنميط اللثام عما يجري هناك، بعيداً في أعالي ذلك الجبل.

حسناوات.. ولكن ضابطات!

سيحتاج الخيال إلى جسارة نافرة ليتصور هيبتهن وهن يجمعن التضاد اللذيذ: الجمال والسلطة، في بلاد استنفدت جمالها ودخلت سلطتها كل الأفاريز.

مقابلتهن كانت أصعب بكثير من لقاء وزير، بل احتاجت إلى موافقة جماعية من وزير الداخلية ومدير الشرطة العامة والمكتب السياسي واتحاد النساء وعيون زملائهن الضباط الغيارى.

وحتى عندما حصلنا على كل هذه الموافقات، اقتحم عقيد حازم خلوتنا ليسأل بشبه أمر إن كانت لدينا موافقة. وكان لا بد لتشجيع استرسالهن من التخلص من كل القابعين معنا بلا داع، ولم يكن أمامي سوى القول: جئت لمقابلة الضابطات .. الضابطات فقط رجاء ولا أحتاج لغيرهن!

أعدتها مرة واثنتين، حتى فهموا وانصرفوا في نهاية الأمر. وكان حدسي في محله، حيث تغيرت الأسارير وبانت الابتسامات وانسابت الأحاسيس بلذة شعت على طفق فضولي.

الرقة المعلنة

أنت إذن يانار سردار المتخرجة من كلية العلوم، كيف وجدت نفسك ضابطة وماذا تعملين؟

تجيب يانار بتفجر مفاجئ: أحب الانضباط وتعوّدته في حياتي. ولا أجد ثمة فارقاً بين اختصاصي العلمي وما أقوم به الآن. أعمل في التحريات الجنائية وهي مديرية مستقلة في وزارة الداخلية.

توقفي.. كل هذه الرقة وتعملين في التحريات الجنائية؟ أليس في هذا الربط بعض الغرابة؟

تنهمر كلمات يانار من ساقية فمها بمعرفة: لم لا، قد تكون الرقة هي ما ينقص لاستكمال العمل، فالمودة أحياناً هي التي تنجز المهام وليس فقط الأدلة المادية.

من ذا الذي يمكنه معارضة نظراتها التي تشبه سياط المعذّبين. من الواضح جداً أن الأمور في كردستان تتبدل، ولا ريب أنهم يختلفون في الرغبة والثقة والنوايا عن ذلك النظام العجيب الذي يترصدهم في الجنوب.

كيف وصلت إلى هنا يانار؟

بلا مبالاة تداعب ورقة أمامها وتقول: ببساطة، قرأت إعلاناً في الجريدة وتقدمت وقُبلت ثم تخرجت.

بهذه الكلمات الثلاث اختصرت يانار رحلتها كلها وتحولها إلى ضابطة في بلاد المحاربين. ومن المحتم أنها لا ترى نصول أعيننا المحدقة ببيريتها (القبعة العسكرية) ورغبتنا في أن يمسد شعرها هواء الإرضاء لا قماش العسكر. هي لا ترانا عندما نراها، وهي اللحظة المؤسفة!!

تحرير الصورة والجوهر

وحرصت إيمان طلعت سعيد أن تكون معنا ضابطة خلال الـ ٧٧ ثانية الأولى من لقائنا، هل حقاً عددنا الثواني! هكذا رتبت نفسها ومكتبها وجلستها وقوامها وكلماتها: ضابطة محترفة. لا بأس يا إيمان فلنر!

هل تذكرين كيف حررت صرامتك بسؤال واحد: محبّك وفارس أحلامك هل تريدينه ضابطاً أيضاً؟

ارتد سؤالي بريقاً من ضوء وجمهرة ابتسامات شعّت على خصلات شعرها الأشقر بجواب طالما رددته: الذي يمنحه الله، لكني أفضله ضابطاً!

استغرق حديثنا في هذا المشروع طالما فتحت الأبواب لتعصر اسفنجةٌ حسها وتضيء ظلام عزلتها، لغاية اللحظة التي أشرفت بقولها: أنا خريجة تربية رياضية وكنت بطلة العراق في العدو السريع وأمارس التايكوندو والكاراتيه!!

فلا غرابة إذن من عملها ضابطة حركات. وحتى لو كان هذا القسم غير موجود في داخلية كردستان، فينبغي إنشاؤه من أجلها، أفضل من جلوسها في حجرة مليئة بالكراسي والنجوم معبقة برائحة الخاكي.

ما عساك أن تخفي فقد وطنت أنموذجاً للفرح والعنف وكحّلت خوفنا من عدم رؤية الانفصال ما بين الليل والنهار، الاستفاقة والخضوع. لكنك ستمضين أكثر مما نرنو إليه لأنك مرشدة الروح.

مؤتلف الوراثة

ولدت نازناس فوزي ضابطة. وربما كانت ترتدي بزة والدها العميد وتقلد مشيته حتى تحقق مرادها في أن تصبح لها بزتها ونجومها الخاصة. تخرجت من كلية القانون والسياسة ليكون عملها في دائرة الشؤون القانونية في وزارة الداخلية طبيعياً.

عباراتها مصقولة وقصّها محبوك. ظهرت كما لو كانت لا تعبأ بشيء ولم تفرّ منها عبارة تريد أن تسمعك إياها عن: الرغبة وحب المهنة والضعف عند تحويله إلى قوة والبلاد المتغيرة والمجتمع كخط حاد وحاسم في بعثرة الإثارة. عن الاختلاف بين صدى جزمات العسكر وقرقعة الكعب العالي، حفيف الشعر الحر أو ربطه ببيريه الشرطة.

للعازبات فقط

قرأن إعلان الجريدة عن الدعوة إلى انخراطهن ضابطات، برز شرط له أهميته: على أن لا يكن متزوجات أو لديهن أطفال. بند يخدم التفرغ ويحمل بعض الحزم وينبئ جهاراً بآخرتهن المؤكدة: لا عزاء للمتزوجات.

أما الآن، فيمكنك أن تحس بخلجاتهن واندفاعهن الممنوع الذي أصبح مسموحاً للصدارة لملء الحيز الشاغر بعد استحواذهن على الجمال والسلطة: فيا أيها الرجال الساعون لتقمص الحياة الآمنة، الحاسرة الرأس، أصبح لديكم الآن إعلان غير مدفوع الأجر للزواج بمن كسر الأغلال.

أنا كردية

هكذا كانت تقولها ربة بيت استقبلتنا مع زوجها بفرح أنساها مرور أطفالها من بين أقدامها ومداعبتهم لقطة ربما فرضت عليها إجراءات التعريب أيضاً ورحّلت معهم. أنا كردية. كيف أصبح عربية؟ تتساءل المرأة بفطرة وانسيابية.

قلت لها: لكنه مجرد توقيع تكفّون فيه الشر عنكم؟

بلا تردد أجابت: اليوم نوقع وغداً في جيش القدس؟ لا، لا.

- هل حالكم الآن أفضل؟
- نعم.
- كيف وقد تركتم دياركم وبيوتكم؟
- لكننا أحرار. لقد كسبنا الحرية.
- هل الحرية أغلى من البيت والأرض؟

- أغلى من كل شيء. لا تتصور كم نحن سعيدون هنا بالحرية!
- أتصور، وكذلك أرى.
هكذا دار حوار نموذجي مع امرأة على سجيتها حول الحرية والأرض وأثبتت لنا أن لا شيء أثمن من الحرية، بل أنها بلا ثمن.

دعوة إلى البكاء

أطل علينا عجوزان متهالكان من وراء سياج طري، ابتدع الرجل تحية غير مألوفة بوضع يده على رأسه دون أن تميل نظراته عنا.

بعد قليل سمعنا دعوة من كوخ مجاور: تعال وصوّر أمي. قالتها امرأة وفتحت باب الصفيح مدخلاً لبدء الضيافة. عندما انحشرت في غرفتهم الوحيدة كان ثمة أطفال نائمون بفعل غزو مقصود من شمس دانية لم أستطع عدهم لتلاحم أجسادهم. وقفت العجوز التي كانت ملامح وجهها كافية لإشعال حرب عالمية. كانت تجاعيدها تفسر كل الحزن الذي يمكن أن يراه إنسان من هذا النظام. فتحت عينيها محدقة بالأطفال، أشارت نحوهم، وبكت دون أن تذرف دمعة، لأنها لا تملك حتى هذا الدمع!

تهدم حتى هنا

ينسلخ المهجرون وتنسحل أقل أمانيهم، ولكي نثبت ذلك ننسحب خلف الصوت القادم: تعال وصور هنا.. وقع هذا البيت على أهله.

وقفت على حافة بيت من طين تتعذر معرفته، أو هو غرفة من كل المواد الطبيعية السائبة التي لا يحتاج لها أحد من البشر هنا. أين هذا

البيت؟ أضلاعه؟ سقفه؟ بابه؟ شبابيكه؟

– ماذا تقول؟ هي غرفة من طين وبلوك وإسمنت مخلوط بجص ورمل وقعت البارحة على ثمانية أشخاص دون أن يصاب أحد بأذى.

هي المرة الأولى التي تقف فيها هشاشة البيوت لصالح السكان. كان من غير الممكن أن يصاب أحد بسوء لأن الذي انهار عليهم تراب وسعف وخوص!

هذا ما حصل عليه هؤلاء التعساء، أصحاب أغنى أرض في الكوكب: تراب وسعف وخوص! لكن الحرية تبقى هي الأغلى. محاولة لا بد منها للتماسك.

روميو وجولييت

إحدى أجمل قصص الحب في التاريخ المعاصر حصلت في غضون قصف حلبجة بالكيميائي. فقد نفدت الإبر المضادة للغاز لكثرة الجرحى وبقيت لدى مجموعة من المنقذين إبرة واحدة، وفي هذا الوقت وُجد شاب وشابة مطروحين على الأرض وقد التصق رأساهما وكانا عروسين زفا قبل القصف بيوم واحد. احتار المنقذون لأيهما يزرقون الإبرة حتى سمع صوت العروس تطلب أن تُزرق الإبرة لزوجها لأنه، حسب تقديرها، في حال أسوأ منها. لبى المنقذون رغبتها وبعد دقائق كان العروسان يبتعدان عن المدينة وقد أحياهما الحب من جديد.

شارع الأرامل

بيوتهم ليست منعزلة أو منخرطة من جلد المدن، لكنهم تعودوا على مشاطرة الأغراب أحزانهم. ومهلاً يدبّ الصباح ملطفاً الأزقة المنقورة بالماضي والرياح التي تبعثر الأبواب لتمنح الفؤاد دقات مؤانسة؛ علهم يأتون، في ظهيرة أو أفق معتم، تترنح الأبواب بفضل الرغبة ـ الأمل، لعله عصفور أو أكف متهاوية: هم أطفالك قد كبروا، أنت الغنيمة والحضور، اليقين الذي لا ينقطع، غباري وعندليبي والنسمة التي تبقت في الروح.

في ظهيرة لو حضّرت لها كل الاضطراب المتاح، لما ناولتك أقساطاً من الأحزان المتوالدة ولما فسرت إخفاق الضمير ولا صخب المرارة. كيف ستنسق كل هذه القصص التي إن نزلت واحدة منها في صدر نشرة أخبار، لصدعت العالم ومن لم يجد عسراً في مرآه.

هي حكاية واحدة لو تلم أقطابها: يحاصر «الجيش الرابع في العالم» قرية ما، يقصفها بكل ما لديه من وسائل ومن ثم ينتزع من بقي فيها من كائنات حية لسوقها إلى مصير مجهول. لا متسع للهرب حتى لو امتلكت كل الزعانف والأجنحة.

نسطر في ما يلي حكايات الرعب وبؤر الخوف، عن أولئك الذين ما ابتدعوا القصص، بل حلت عليهم كغمامات لا تحصى. كم من الكراسات والمنابر تحتاج لتروي أصلها وفصلها، مكسوة بحفيف الألم المهان الذي احتفظت به كل سحابة وحجارة وبرق ووهج شمس باللغة الغاضبة، عن تلك اللحظات الغادرة والتراب الذي تعذب بحمل الابتكار الفظّ للشعور. فيا أيها القراءة، افرضي كتابة

بلا بداية ولا نهاية، عن العلة والجمر الذي يأبه بالنار، كبرياء الرمل ومهر النبات. باسم العذاب والألم والأمل الذي عمر أرواح قلوبهم وحدهم التي ظلت الأبجدية وتنازلت عن وداع حجارة الأجساد الراحلة. هم بلا أدنى شك ولا شفقة أو ميقات، كما الزمان العابث بالأقدار: أيتام ضحايا الأنفال وأراملهم.

زوار فحسب

قلت: عشت أكثر من عشرين سنة أيضاً في انتظار أن يطرق علينا الباب ليقول: من يكون؟ أنا طبعاً!

ولمعرفتي قسوة طرق أبواب المنتظرين، تنازلت عن فضول المهنة لغيري واستعرت يديه لأطرق بها الأبواب التي لم تتوان عن احتضاننا مع الغبار والقيظ. وقبل توجيه السؤال نسمع الحكاية من نهايتها: عدنا من الحقل بعد مغيب الشمس ولم نجد أحداً في القرية. أخذوا كل من فيها، أطفالاً ونساء، شيوخاً ورجالاً، حتى الحيوانات. وهكذا نحن على هذه الحال طوال سنين. لم يكن أحد منهم بيشمركه، لا نعرف لماذا أخذوهم وماذا حل بهم.

التفّوا حولنا وغطونا بالألفة أكثر ما استطعنا منحهم إياها. كان الصبية يهرعون لجلب الماء البارد، ويبدو أن شكلنا في ذلك النهار الحارّ أوحى بذلك، أو هي الضيافة لم تطأ أقدامها عتبة بيوتهم.

زحفت امرأة في الخمسين متعالية على تعبها لتنظر إلينا وقد أرخت رأسها على أحد الجدران. لم تعلق بشيء، فقد ملت من إعادة حكايتها أو ربما هي تجد صعوبة في روايتها أو تذكرها. تطوّع شيخ

من العائلة بسردها: أخذوا زوجها وأولادها وبناتها الصغار. وكل يوم تعد أعمارهم كي لا تنسى. ولا تكف عن الترديد: لماذا لم يأخذوني معهم؟

كل ما في الأمر، أن عملية خطف الناس تمت بفوضى وهناك من اختبأ في مكان ما ولم يصادفوه أمامهم، وإن نجا بجلده، فقد كتب عليه أن يعيش المحنة ويسطرها كما تفعل هذه المرأة.

في دار أخرى، أطلت عجوز رافعة ثلاث أصابع، تدرك أننا لا نفهم الكردية، استمرت بإشارتها وتبين أنها كانت تقول: أولادي الثلاثة أخذوهم. كل ما لدي في هذه الدنيا.

كانت أصلاً أرملة حرب، وما أن حلت الأنفال بها حتى أضيف لها لقب مؤلم جديد.

حكايات العائدين

روى العائدون من المحرقة، وأغلبهم من النساء، وبعض الشيوخ قصص احتجاز الآلاف في نقرة السلمان والطوابير الطويلة للرجال الذين كان يلقى بهم في حفر كبيرة لدفنهم أحياء.

وقبل عمليات الدفن الجماعية لا يمنح المعتقلون غير صمونة يابسة في اليوم مع ماء مالح. بقوا على هذا الحال أكثر من ستة أشهر قبل إطلاق سراح المسنين الذين حملوا هذه الشهادات، وكان عددهم قليلاً جداً قياساً بالعدد الهائل من المعتقلين، حيث عاد إلى السليمانية أربعة مسنين فقط من بين كل الرجال الذين اعتقلوا.

يقول أحدهم إن ابنه اعتُقل هو وزوجته وثمانية أطفال ولم يعد أحد منهم حتى الآن. يؤكد الشيخ كيف كانت الجثث تترك في العراء ليرى المعتقلون كيف تنهشها الكلاب.

مرح الأرامل

قلت: هل كل النساء هنا أرامل الأنفال؟ ولمزيد من الوجع كانت الإجابة بنعم.

كان السؤال محقاً بعد توقفنا عند مجموعة من النسوة كن يجلسن على عتبة أحد البيوت. من العسير أن تجري حواراً مع هذا الكم من الأرامل دفعة واحدة. تمعنت في ملامحهن، يقيناً كانت هذه الملامح تخفي جمالاً منحسراً، يافعاً، لم تمسده كف حانية. ومع تحديق أكثر عمقاً، تلمس في كل تجعيدة انفطاراً في القلب وآهة مستبدة. ومن الواضح جداً أن هذه المجموعة كن من العرسان الجدد قبل وقوع الأنفال.

شعرت بأن من الحماقة استدراجهن لقص الحكاية الواحدة والمعروفة باستبدال الحوار الكئيب بآخر أكثر لمعاناً استطاع تجفيف القسوة في عيونهن وإظهار ما تيسر لديهن من مرح هن بأمسّ الحاجة إليه الآن وفي أي وقت.

العراقية

«كون المرأة غير مثقفة
فضلاً عن كونها فقيرة،
يعني أنها فقيرة مرتين»

ـ ماريو بارغاس يوسا ـ

هنا، وهنا فقط، سنفتح كل الأبواب لنطوف وإياكم من أقصى جنوب العراق إلى آخر قمة في شماله مع الطفلة والعاملة والأم والعجوز والأرملة والشاعرة والنائبة والجميلة والنائحة والسائقة والقرينة والمحاربة والهلعة والمبصرة ما لا نراه، سنديانة البلاد وشراعه، قلبه وشرايينه، تلك العراقية الصابرة، سنسير خلفها مثل طائر فوق الموج، موشاة بالأسماء المدوّنة والأفعال المنقذة، الواقفة بوجه العاصفة، بنشوة المناكب وثوران النمرة المكحلة بشريط حشائش.

إعلان «سافر» لـ «منقبات» البرلمان العراقي

المرأة العراقية لا تبتعد كثيراً عن النساء اللواتي لمسنا تعطشهن للسلام في مناطق ساخنة كثيرة في العالم، وأهم ما يحلو للسلام والعملية السياسية الجاري بناؤها في العراق، أن تمنحها المرأة، مفردة جديدة، لم يبتكرها الرجال بعد، فنسبة الـ ٢٥٪ التي أدخل وفقها رجال مجلس الحكم ومستشارو الإدارة المدنية للتحالف في غضون عملهم في «قانون إدارة الدولة»، المرأة في البرلمان العراقي المنتخب، لا تكفي لحسم مسألة ابتداع الأسلوب والطريق والكلمة الجديدة في الحياة العراقية المؤسسة، وليس ثمة بُعد أو إشارات، على أنهن سيتجاوزن تكرار الكلام وإعادته وانتظار أوامر الكيانات والتحالفات التي رفعتهن إلى المقعد النيابي، فالواقع يثبت أن كل نساء البرلمان العراقي قاطبة، دخلن إليه وهن «منقبات»، أي كانت أسماؤهن ضمن قوائم سرية لم يعلن عنها وموجودة في ملفات المفوضية المستقلة للانتخابات، حفاظاً على أمنهن وحياتهن، خاصة بعد اغتيال آمال

العلوجي ووجدان الخزاعي المرشحتين للانتخابات، الأمر الذي أدى إلى رفع صور كل المرشحات وأسمائهن.

الغائبات

تنقص المرأة العراقية المعاصرة ما نسميه «المبادرات المذهلة» التي تحصد التغيير الجوهري في مسرى «الحركة النسوية» الغائبة والمغيبة في إطار تنظيمات النظام السابق.

وغابت الأصوات النسائية في الغناء الأصيل، فضلاً عن المفكرات ومحركات الرأي العام سواء بالصحافة أو الإعلام المرئي الذي يقتصر على تقديم مذيعات خاليات من الصوت والصورة.

باختصار، لا توجد امرأة عراقية مؤثرة في الوسط السياسي والثقافي والإعلامي والفني والدبلوماسي، عدا المهنيات في حقول معارفهن الدراسية في الطب والهندسة والمعمار وغيرها، والشرط الوحيد الذي حدده قانون إدارة الدولة للنائبة في البرلمان، هو أن تكون حائزة شهادة الثانوية العامة حدّاً أدنى، وهو شرط غير كاف لتعريف النائبة العراقية.

المستلبات

أطاح العنف البالغ القسوة، قيمة المرأة وخاصة في العراق، فقد كانت ولا تزال رهينة لعنف المجتمع والدولة، وإن لم تكن طرفاً فيه. ولا تزال المرأة تعدّ بمثابة الفدية التي تقدمها العشيرة للعشيرة الأخرى في حالة الاختصام أو وقوع حادثة قتل. فتمنح العشيرة عدداً من

النساء للعشيرة التي تطالب بالثأر بما يسمّونه في العرف العشائري «الفصلية». أي أن المرأة تحولت إلى سلعة للفصل في الخلافات، كالنقود تماماً أو الأغنام والأبقار، فمثلاً تكون نهاية عملية الفصل التي يشارك بها شيوخ العشائر المحتكم إليها وأطراف النزاع كالتالي: مليون دينار و١٠٠ رأس غنم و١٠ جاموسات و٥ بقرات و٣ نسوان!!

هذا أكثر من العنف الذي نشب أنيابه بقوة النساء العراقيات اللواتي لا يزال القانون العراقي لا يحاسب أقرباءهن حين يقومون بقتلهن بدعوى «قضية الشرف». حيث يقبع قتلة النساء في السجن لمدة ٦ أشهر تلبية لما يسمّونه «الحق العام».

وقد سنّ هذا «الحق العام» رجال غير منصفين في الدولة والقانون ومسايرون لوضع المجتمع الذي تغيب فيه المرأة عن أي دور بارز فيه.

لقد أربك هؤلاء المجتمع والقضاء في هذا «الحق الجائر» الذي ذهبت ضحيته الكثير من النساء العراقيات (والعربيات)، الكثير جداً، حيث لا نسبة معينة في دولنا التي لا تحترم نفسها وشعبها لكي تؤرشف وتحصي جرائمها بحق المرأة.

تستيقظ المرأة ليطيحها العنف منذ بداية يومها، تكون ضحيته الأولى وإن كان غير مرئي، مثل وقوعها في مركز المعارك الكثيرة التي حصلت خلال الحروب، كعنف الحاجة والوضع الاقتصادي والمعيشي المتدهور.

والعنف الاقتصادي تحول في العراق (نموذجاً) إلى عنف اجتماعي،

حين تزف فتاة في العشرين إلى رجل متمكن في الخمسين أو أكثر. أو ذاك العنف المنزلي التقليدي، الذي تطور في العراق ولشدة توتر الرجال إلى قتل بسبب أبسط المسائل.

وثمة عنف الإجرام المنظم، ومنه الخطف والاغتصاب والإجبار على دفع الفدية، لكون المرأة أسهل خطفاً من الناحية الفيزيائية.

ونشأت في العراق شبكات الدعارة بالترهيب والترغيب، والعامل الثاني قديم، لكن الأول بدأ ينمو سرطانه، حيث تجبر النساء على الدعارة ويحبسن في أماكن خاصة، وتطور الأمر إلى تهريب الفتيات العراقيات إلى الخارج بشكل منظم.

وهناك التشويه المتعمد الذي تتعرض له وجوه النساء وأجسادهن بسبب استخدام الحوامض ضدهن أو تعرضهن للتشويه بالآلات الجارحة.

وفي الريف والأهوار التي كانت ميداناً لمعارك مختلفة ووكراً لقوى المعارضة المسلحة، ولأن معظم النساء يعملن في الحقول والرعي، فقد تعرضن للموت نتيجة وقوعهن في حقول ألغام أو انفجار ألغام متفرقة، كانت الأطراف المختلفة تزرعها بدلاً من الحقول.

المغبونات

ولم نسمع يوماً بأن القانون عاقب رجلاً لممارسته العنف ضد المرأة، ولم تجز القوانين معاقبة الأزواج لضربهم المبرح لزوجاتهم ولم يقبض على الذين يستغلّون النساء جسدياً ولم يحاكم أحد منهم، ولم

يجرب أحد أو منظمة أو حركة سياسية، طرح مشاكل المرأة بعمق وتبنّيها لمعالجتها ببرامج نظرية وعملية، عدا مقتطفات دعائية حيث لم يضع أي برنامج البلسم على جراح المرأة العراقية ولم يتفقدها بعمق.

لم يعاقَب الجناةُ بحق المرأة، ولا يزال القضاء العراقي مقصراً حتى الآن. ومعروف أن أفضل تغذية للعنف، هو تقصير القضاء ونجاة المذنبين. فالمحاكم العراقية لم تشهد قضية واحدة أنصف فيها القضاء امرأة، يهملها زوجها وأطفالها، فيما يهدر أمواله بالسكر، على سبيل المثال. فالمرأة في العراق لم تتعود رفع قضية على زوج سكير مقصر تجاه عائلته، لأنها تعرف مسبقاً بأن لا وجود لتشريعات، فضلاً عن غياب ثقافة مجتمع، تساندها، فقد يذبح الرجل زوجته، ويعلق رأسها على باب المحكمة وتحكم عليه بستة أشهر حبساً عاماً.

فالقانون والمجتمع محكومان بسلوك الرجل ويصدّقان ما يقوله ولا سلطة عليه داخل بيته (في هذه المسائل).

ولا قوانين لضمان اجتماعي لربة البيت غير العاملة ولا ضمان صحياً لها ولأطفالها وليس لها حصة في موارد البلاد المشاركة في بنائها. ولو وفرت الدولة الحد الأدنى من حمايتها المادية على الأقل، لتحررت من بعض الجور والاستغلال.

المعبّرات

رأينا كيف أن المرأة تعبّر عن رفضها أو تأييدها أو حزنها البالغ بالرقص. فالموسكوفيات أسقطن انقلابين في ١٩٩١ و١٩٩٣

بالرقص في الساحات، والكرديات يبتهجن بالرقص الذي يزيل عنهن العنف التاريخي، في الأعطال والتجمعات والأعراس وحين يعبّرن عن رفضهن لموقف سياسي ويشتمن دولة جارة بالدبكة. والشيشانيات يُعقن تقدم الدبابات الروسية بحلقات رقص ديني، والأفغانيات يؤدين رقصاتهن بعد إزالة كابوس طالبان المرعب. والعراقيات رقصن عند مداخل المراكز الانتخابية. ويرقصن حتى في مواكب الحزن، فالأناشيد التي تصاحب مواكب العزاء تمنحهن الفرصة للتعبير عن الحزن بالجسد وحركات متفق عليها، وإن كانت مرافقة للّطم، لكنها نوع من الرقص، أو تجسيد الحزن بحركات راقصة مثل تمايل الرأس والأكتاف وهرمونيا الأيادي والأقدام، فلا خطأ ولا نشاز في عملية الرقص الحزين.

المحاربات

لقد أدركت النساء العراقيات أن الحرب ليست هي الاقتتال فحسب، بل ثراء أقلية طفيلية على حساب الجميع. فالمرأة العراقية راقبت هذا الأمر، لكونها كانت الأكثرية وهي التي بقيت في المدن الموحشة بلا رجال. وفضلت اختيار البقاء على قيد الحياة، مع أطفالها والشيوخ والعجائز المتكفلة برعايتهم. وكان قرارها عدم الاشتراك بأي شيء، عدا الحصول على الطعام، حتى للحيوانات المسؤولة عن رعايتها.

وأجبرت المرأة على حمل السلاح والوقوف لساعات طوال في ساحات التدريب وتأدية مهام عسكرية رغم إرادتها، وإشراكها في حفلات الإعدام والقمع وتسوية ضميرها ونقائها بالتقرير الحزبي عن تصرفات الزوج والأخ!

المحرومات

القفار الذي عاشته المرأة العراقية مكعّب، فيومها مجدب، بغياب عناصر الفرح وبانهيار السد الذي تأمن له، بغياب شريكها في الحياة في الحرب أو الأسر أو الموت او في المقابر الجماعية، أو بتداعيه وسقوطه ومشاركته في العجلة القمعية والوحشية التي تفقده الحس الإنساني والرومانسي الذي تتعطش إليه أية امرأة.

ومورس ضد المرأة العراقية عنف مضاعف، فقد كان الرجال يعتقلون وبعض النساء، والذين يبقون يطردون من المنزل ويهدم أمام أعينهم وينهب في موسيقى تصويرية تجسدها نسوة أخريات يلجن البطش ويوسعن حرقة الحرمان فيهن بزغاريد الوجع.

وجدت الآلاف من النساء العراقيات أنفسهن مع حزمة أطفال وشيوخ في العراء بدون أن يستطعن تلمس أي أمل. هذه الإجراءات الجديدة على الواقع والمجتمع العراقي، نثرت العائلة والمرأة بشكل خاص، ووزعت النساء والأطفال الإناث خاصة بين الأقرباء، فيما كان الشارع مهداً للصبيان. وفي النتيجة حرمت النساء البالغات والصبايا من البيت والعائلة وأولاياء أمورهن، ولا يمكن تعداد مخاطر هذا النوع من التدهور الأسري وحصرها.

أيصح أن نصف نساء العراق في زمن العولمة والاتصالات الرهيبة والأجهزة المنزلية المبتكرة يغسلن الملابس في الأنهر ويشربن البلهارزيا ويصادقن الكوليرا وأنهن حافيات تستمر ملابس الفصول على أجسادهن بلا تغيير حتى إن أصابها الاهتراء والاعتراض والضجر!

ولعل جراح العراق تكون أقل لو أن فيه من يفكر بدموع الأمهات وخيبات الأرامل، لو قلّ فيه الذين يبيعون ويشترون بأنامل فتياته اللواتي يحكن السجاد طوال ١٢ ساعة لقاء ٥٠ سنتاً في اليوم ولو كان فيه القليل جداً ممن يحرقون القرى فيه ويتركون النساء والأطفال يلتحفون السماء والأرض الجرداء.

لكانت جراح العراق أقل لو لم ينهبوا جهود المزارعات والفلاحات وراعيات الغنم وحاصدات المحاصيل وجامعات الملح ومنظفات التمر وبانيات الأكواخ ومولدات الحصران، الخبازات وبائعات اللبن الطازج والسمن الحر.

لكان العراق أكثر تورّداً وأكثر بهجة لو قلّت فيه الجواري وحمالات الحطب ومن يلدن عشرة رجال ولا يدفنهن أي منهم.

المتشردات

نجم عن الوضع العراقي المتردي عقداً بعد عقد، ظهور حالة التشرد العام. فالحرب أدت إلى سقوط مدن حدودية كثيرة عسكرياً وأخرى كانت مسرحاً لمعارك كثيرة وثالثة تتعرض للقصف اليومي واستباحة الجيش المتحصن فيها.

هذه الحالة أدت إلى نزوح جماعي لمئات الآلاف من النساء وأطفالهن إلى مناطق أكثر أمناً. ولكون النازحين بلا مال ولا غطاء ولا شيء إطلاقاً، فقد اتخذوا من المدارس والحقول والحفر ملاجئ لهم. وهنا بدأت مرحلة جديدة لمعاناة المرأة. فهي بلا عمل ولا كساء ولا سقف ولا أي مورد ولا قريب ولا نصير، فما الذي

يمكنها أن تفعله لإعالة أطفالها ونفسها؟!

اللاجئات

وتلك التي تعلمت كثيراً في شبابها ووجدت نفسها بين ثلة مهربين ينقلونها من مطار إلى آخر بجوازات مزورة وهويات منتحلة بغية إيصالها إلى بلد اللجوء.

وبين هذا الحين وذاك الأمل، تنتقل بها أيادي الوسطاء والوعود الكاذبة وما أن تثقلها ديون الرحلة والنصب والاحتيال، يبرز الشبان الظرفاء الثرثارون الذين يحولون أيامها إلى جنة قادمة لو يسددون ثمن رحلتها وديونها لتقدم لهم خدمات أوفر مما يسددون فيختلط حابلها بنابلهم.

وثمة عراقيات توفين ببطء بعد بيعهن نصف أعضائهن، فالذي يبيع كلية لقاء دفع تذكرة الوصول إلى الحرية، لا يعلم ما الذي يستأصلون منه في أجواء المخدر!

النائحات

لا أدري عدد النساء العراقيات اللواتي يمتلكن دموعاً حتى الآن! فلكثرة ما بكين وأرهقن المقل والمآقي والحناجر والقلوب، ذبلت خدودهن وجفّت أرواحهن من دمعة زائدة.

وكانت المرأة العراقية لغاية يومنا هذا تستغل المناسبات الدينية والحسينية وتقطع مئات الكيلومترات لكي تبكي!

والأعباء الجسام الملقاة على مناكبها، تجعل من لقاء عزاء، سلواها والظهر الذي يحمل الأحجار التي حطمت صبرها وروعها، فبرزت ظاهرة النائحات التي بدت كما لو كانت مهنة خاصة بالنساء العراقيات، اللواتي يتجمعن في كل حي وقرية ليلطمن ويشققن ملابسهن لغاية يوم جديد من البكاء.

العاملات

ماذا في نفس المرأة التي تصحو في الرابعة فجراً لتوقد النار في التنور لتعدّ خبز الإفطار ومن بعدها تمخر بالقارب الصغير نحو حقول قصب السكر والحنطة والشعير والرز لترويها وتنظفها سنبلة إثر أخرى وتفتح المجرى وتعدل السواقي وتطعم الأبقار وتمازح الأغنام والدجاجات المهيآت للبيع في المدينة؟

هل بوسع هذه المرأة تفادي ذكريات الرجل الذي غادرها سنين طويلة، محملاً إياها الصباح الثقيل تلو الصباح والمساء الدامع ورعشة الأطفال من الظلام؟

هل تفعل ذلك لأنها تنفّس عن روعها وتحبط الحقد وتطرد غيمات التعاسة وتكسر مخالب الزمن؟

المسالمات

لم تبرز جمعيات نسائية جادة، بعد حل اتحاد النساء المؤلف من الحكم الديكتاتوري، بالرغم من وجود ٢٢٠٠ منظمة نسائية في العراق الآن أنشئت في ظروف التعددية ومزاج البلاد القاهر الذي

كان ينبغي أن يرغم النساء على تأليف مثل هذه الجمعيات لينخرطن في أدوار مختلفة لمناهضة العنف ومناصرة السلام والديموقراطية، ولم يقدم العراق الجديد «ناشطات»، لكنه للأسف قدم، كالرجال تماماً، طامحات وطامعات بالمناصب، والغريب أنهن يشغلن هذه المناصب التي منحها لهن الرجال، بدون النظر في إمكانية مجاراتهن لدور المنصب وأهميته ولعبة تقديم المرأة على طبق من ديموقراطية.

إن الظرف المنطقي يتطلب ظهور نساء ينشطن في مجال التآخي والسلام في العراق، لأنهن الأكثر تنظيماً واستقامة وصبراً، ويفترض أن تكون النساء اللواتي رأين كل هذا الضيم والعنف البالغ القسوة، مترفعات عن استحواذ المناصب لمجرد المناصب والتعطش للسلطة الذي يعرف به الرجال أكثر.

الصامدات

صمدت النساء العراقيات في الميدان وتضامنّ فيما بينهن دون جمعية وحركة وفضائية وبرامج موجهة وتعاليم قائد أوحد. ولغاية اللحظة لا يجمعهن كالرجال، الحديث الطائفي ومن بينهن السنية والشيعية، ولا يتنابزن ويتحرشن بالتركمانية المتزوجة من طبيب القرية الشيعي.

لم يتوقف التاريخ العراقي إطلاقاً، في حادثة واحدة، حصلت فيها الشقاقات بسبب النساء. لا الجنوبيات اللواتي اشتهرن باللجوء، ولا المنفيات في أرض الله الواسعة ولا تلك الأمكنة الغريبة التي تتخبط بها الأرواح بلا قرار.

وأي امرأة في الكوكب يمكنها الصمود مثل العراقية التي دهستها أربع حروب في أربعة عقود ومثلها حروب الدعاية والكذب والافتراء والمحو والتهميش وعدم امتلاك الإبرة والخبز والمبضع والمضجع.

من بقيت واقفة على قدميها وشبابها الغض يقطّعه الاكتفاء بفتات الدنيا، قانعة بافتراش الهواء ووساداتهن الجافة وشراشفهن الخاوية مضاءة بالآمال وخطى الدروب المقفرة.

وهل كان السبب الحصار فقط أم «حكمة القائد» وراء تفشي الشعوذة ووسيطات الشيطان في البيت العراقي، وتنوع السيدات والأمهات، البائعات على أرصفة الدول غير النفطية؟

وكم في العالم من يعرف بأن صدام كان يمنح النقود لزوجات قتلى حروبه، ممارساً دعارة دولة بتشجيعهن بالقوانين على الزواج بعرب أو عراقيين متزوجين، متصوراً أنه بذلك عالج تدفق الأرامل في المجتمع العراقي، مسجلاً موقفه في تاريخ مخز من شراء ذمم وأرواح ووعود كاذبة، ملطخ بالقمع وجنازات الأطفال الذين رضعوا الجوع والتي كان يتخفى وراء دعايتها.

النائبات

وهل أعدت منظمة نسوية عراقية أو مرشحة واحدة من اللواتي سيوقعن على مراسيم الشعب دراسة واحدة أحاطت بكل الآثار التي ألمّت بالمرأة العراقية، برواسبها وريبها وتآلف خيوط النار والجوع والتشرد واللجوء والعهر وأحصت المساءات المثقلة وأدرجت الخيالات والأحلام الضائعة لمقبض المرأة وبصيرتها، عشبها وخطاها

المبعثرة في دروب الحياة؟

ومتى تظهر من بين نائبات العراق مثل ريغوبرتا منشو النقابية الغواتيمالية التي أعدم أهلها جميعهم لتفوز بجائزة نوبل للسلام نتيجة نشاطها في حماية المرأة والطفل بعد أن هلع العالم بتقريرها الواقع في ٣٦٠٠ صفحة وحررت فيه شهادات ٤٢٢٥٧ ضحية والذي قدمته إلى الأمم المتحدة؟

ومن الواضح أن المرأة العراقية لن تشعر بالراحة أكثر حين توافق الأحزاب الكبرى على إيجاد نساء في البرلمان، بل لن يريحهن غير كشف النقاب وتوضيح ما حصل لهن للعالم أجمع.

الموحّدات

لقد حصلت المنظمات التالية: «جمعية النساء المتشحات بالسواد» ــ صربيا، «صوت النساء السودانيات من أجل السلام» ــ جنوب السودان، «النساء الأبيّات» ــ السلفادور، «أمهات الجنود» ــ روسيا، «اندراديفي» ــ كمبوديا، «فتيات الأرز» ــ فييتنام، «المنبر الأوروبي لنساء إيرلندة الشمالية»، «كل الأطفال معاً» ــ إيرلندة الشمالية، «نساء نهر مانو» ــ ليبيريا، «جمعية المدينة الحرة» ــ سيراليون، «كانولونفان» ــ الفيليبين، «الائتلاف ضد المتاجرة بالنساء» ــ تايلند، «معاً دعماً للنساء» ــ راوندا، «من النساء إلى النساء» ــ البوسنة، «أمهات ساحة مايو» ــ الأرجنتين، «الأمهات المناهضات للمخدرات» ــ إسبانيا، ــ الأمهات ضد المافيا» ــ إيطاليا، «نحن أحياء» ــ بوروندي، «دعم النساء الأفغانيات»، على عشرات جوائز السلام وحقوق الإنسان وثلاث

منها على جائزة نوبل للسلام، ولم تكن ناشطة واحدة منهن نائبة في برلمان أو سفيرة، بل كن هامشيات، وحسب قول فرجينيا وولف فإن النساء خارج اللعبة الوحيدات القادرات على منع وقوع الحرب.

وبالرغم من وجود ٢٢٠٠ منظمة نسوية في العراق الراهن، فإنها لم تمنحنا جمعية ناشطة للأرامل العراقيات ولا للمنتظرات ولا للعاطلات ولا اللواتي تعرضن للاغتصاب والحرمان وفقر الدم بسوء التغذية ولا للخائفات والمطحونات والأميات والوحيدات والمطلقات والمستعبدات والعازبات رغماً عنهن، مع العدد الكبير للغاية لتنظيمات المرأة حالياً، الذي قد لا يصدقه الرجال!

العائدات

لعل دخولها القوي للجمعية الوطنية وبهذه النسبة الجيدة قد يمنحها فرصة للعودة إلى تبنّي تجديد الحياة السياسية والاجتماعية العراقية، لا لكونها على الأقل نصف المجتمع، بل تمثل أكثر من نصفه في العراق الذي قتل الكثير من رجاله وشردت نسبة كبيرة ممن تبقى على قيد الحياة.

وهل يصح ما قاله البعض بأن من زج بنسبة المرأة في البرلمان زجاً، أراد إمرار مشاريعه بطلاء ديموقراطي، أو استثمار للمرارة والحيف الذي تعرضت له للظهور بصورة أجمل من الأنظمة السابقة التي تسببت فيه!

وإذا كانت تؤلف أكثر من نصف المجتمع العراقي، فهي تشكل العنصر الأساسي والمهم في العملية الديموقراطية نظرياً بالتأكيد،

فضلاً عن خبرتها الميدانية في تسيير شؤون المجتمع وقد تشبه «الاستمالة» حسب تعبير السيكولوجيين للمرأة لإكمال الدوافع والحاجات وتحقيق الغايات الحزبية والشخصية.

وثمة من يقول بأن الولايات المتحدة هي التي فرضت نسبة الـ ٢٥٪ للمرأة في البرلمان، وسيتعدى الأمر مفهوم «الاستمالة» السيكولوجي إلى «الاستثمار» الذي يتعاطاه الساسة والتجار في تعاطي الأحزاب العراقية مع «قضية المرأة» ووجودها في أعلى سلطة تشريعية في البلاد، لتتحول إلى مكمّل أيديولوجي للأفكار التي تروج لها، دون أن تطرح ضرورة لمشاركتها الفاعلة في اتخاذ القرارات الاستراتيجية كالقائل بأنها تهز المهد باليمنى وتدير العالم باليسرى، أو العائد إلى وصايا النبي «لهنّ ما لكم وعليهنّ ما عليكم» فرض عين، لم تبالغ في فهمه السيدات نزيهة الدليمي، أول وزيرة في تاريخ العراق وفي الجمهورية الأولى أيضاً وصفية السهيل سفيرة العراق في مصر وصون كول جابوك عضو مجلس الحكم السابق، عندما قدمن تراشيحهن لرئاسة جمهورية العراق الآن.

شارع البنات

المكان المعلق بالنهر، اسمه وأعمدته والنساء الكثيرات جداً اللواتي استعجلن ضجيجه وأحببن ضوضاء باعته مثل راديو شغّال على الدوام، تتراوح أقدام البنات معلنة بأن طفلاً سيولد قريباً مع خرير النهر وممرات الشارع الذي لا يحجب القمر وتلك التفرعات التي مهما حاولت الزوغان منها ستلقي بك في المصب. ومهما كانت شدة الريح، باردة أم عاصفة، تهدئها الأزقة وترطب رملها وغبارها لتخبئها في تجاويف المحلات التي تلمع ما أن تمر كومة فتيات، ساعد غياب الكهرباء على منحهن فرصة التجوال فيه بدلاً من تعقيدات مختبرات التحليل والرسم الهندسي.

في شارع البنات لا يفترض أن تعرف إلى أي جهة تسير خطاك وأي أعماق فيك تحترق، الزمان فيه فترة مثل الحلم، وسريان لا وقع خطوات متضامة كذلك الحبل الذي مدّوه ليشقوا أول شارع في

البلاد التي لم تعرف النور إلا بعده.

الأفعى

مهما كانت أهداف والي بغداد ناظم باشا في تنفيذه شارعاً منوّراً بعدما كانت بغداد علب صفيح مسقوفة لا يربط بينها رابط أو شارع، إلا أنهم بدأوا بشقه عام ١٩١٠ بعد أن مدّ المسّاحون ومهندسو الطرق الأوائل في البلاد في عهد مدير بلدية العاصمة رؤوف الجادرجي بحبل عبر أزقته وممراته الترابية بحبل خرافي لطوله الكبير، على أن تهدم كل البيوت التي يمر بها «حبل الوالي».

لم يستسلم الكثيرون من أغنياء المنطقة وأعيانها لمشيئة حبل الباشا، فقد تدبروا الأمر مع العاملين ليبعدوا الحبل المدمر عن أملاك أي منهم، لذلك ظهر الشارع في النهاية متلوياً كأفعى طويلة.

الحرث

المرحلة التي أعقبت مد حبل الوالي، كانت إزالة كل البيوت والأكواخ والمباني التي مر بها الحبل، وشرعوا بعدها بتهديمها، لغاية اليوم الذي توقف البناء فيه بسبب دخول القوات البريطانية إلى بغداد. وبمستطاع من عاش في تلك الأزمنة استرجاع مناظر البيوت نصف المهدمة أو تلك التي تمت إزالتها بالكامل ولم يفلح أصحابها ببنائها، مرتضين بعمل مهاجع لهم في العراء، مستخدمين البطانيات والملابس المستعملة، وامتد منظر العراء الشامل من المصبغة التي كانت ميناء بغداد الرئيسي مروراً بـ «خان اللنج» حتى «المبخانة».

كان الناس الذين يلتحفون الفراغ والسماء والأرض ينظرون إلى الإنكليز من وراء دورهم المهدمة، في أوقات لم يكن في كل البلاد شارع واحد أو مصباح حيث كانوا يستخدمون الفوانيس النادرة للغاية، ولم تحفر بها المجاري ويحصل الناس على مياه الشرب بواسطة القرب التي تحملها الحمير، فأول مضخة مياه دخلت العراق في عام ١٩٠٧.

وأدى الحرث غير المواتي وغياب «الباشوات» واستبدالهم بـ«المسترات» إلى تدهور المخطط الرئيسي بعد هروب ناظم باشا إلى اسطنبول والمهندس رؤوف الجادرجي إلى ألمانيا، فلم يكتسب شارع المستنصر كما سموه في البداية شكل الشارع الحقيقي، لا سيما بعد أن أعاد الأهالي بناء دورهم بطريقة ما، حتى استقر الشارع إلى زقاق طويل جداً، لضيقه، الذي لم يمنع في ذلك الوقت من دخول عربات الحمل والنقل فيه.

المرسى

بعد الاحتلال البريطاني للعراق، نشطت التجارة عبر الخليج والبصرة إلى بغداد وشمالاً حتى الموصل. ولأنه لم يكن مطلع عشرينيات القرن الماضي، طرق مواصلات برية أو سكة حديد ولا حتى وسائل كافية لنقل البضائع من البصرة إلى المناطق المذكورة، فقد التجأ القائمون على شؤون البلاد وتجارتها ومعيشتها إلى الأنهار، حيث ازدهرت المواصلات النهرية في ذلك الوقت حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية واستخراج النفط الذي مهّد لبناء طرق برية حديثة.

وكان نصيب بغداد من الأنهر، دجلة فقط، الذي كان عصبها

وشريانها، وغذّى النهر العاصمة ولم يكن شارع النهر وقتها، سوى المرسى الذي كانت تنهال عليه السلع والبضائع والمواد الغذائية والتوابل والأقمشة والبخور وكل ما يحتاج له البغدادي.

وتوسّع المرسى ليصبح أكبر موقع لمخازن البضائع، وتفرعت المخازن لتبنى بالقرب منها محال البيع بالجملة والمفرق، ومنذ نهاية العشرينيات كان شارع المستنصر، المقصود بهذه الرواية، ولغاية اليوم، أهم المحطات التجارية العراقية على الإطلاق.

البنات

جذبهن الشارع بالملابس الحديثة وآخر الموضات القادمة من لندن وبومباي وآخر تقليعات الإكسسوارات الشرقية والغربية وما يصل إلى البلاد من أحذية مستوردة.

كنّ الباحثات الدؤوبات عن المناديل والعطور والعباءات والمواعيد الغرامية والمشاريع العاطفية على بداية جذلها ورقّة أخبارها، متلمسات بريق الذهب ومنبع الصاغة الأوائل وشلالات الحرير ونعمة «النفانيف» المقشرة بالزهور والأشجار واشتياق الطبيعة لسلامة أعشابهن وشفرة يقظتهن.

ولأن الزقاق الطويل الذي كان في خاطر الباشا المتقاعد، شارعاً، تحول إلى مركز إناث العاصمة، فاكتسب اسمه الجديد: شارع البنات! لذلك من الصعب جداً العثور على بغدادية لم تسِر في هذا الشارع، أو بغدادي لم يتغزل فيه حافظاً «رد قلبي» أو يتعلم النضال الخاسر مع التمايل.

الخانات

دورة الحياة تعني أيضاً ارتباط كل شيء بتطور المدن، فتحول الشارع إلى مركز تجاري، ومرفأ وموقع لمخازن ضخمة، يعني كثافة بشرية تتركز فيه، بالقياس إلى أحياء العاصمة الأخرى. وكثرة الناس، العاملين والزائرين، البائعين والمشترين، المارين سهواً، والمتعمدين حشو أعينهم بالرفاه والنساء، كل هؤلاء يحتاجون إلى أماكن للراحة. ولهذا السبب ظهرت الخانات الأولى في شارع النهر الموازي أصلاً لشارع الرشيد ودجلة.

والخان هو فنادق الخمس نجوم في أيامنا، فهو الفندق والمطعم والمشرب، يغني فيه أشهر المطربين وتمارس فيه كل الألعاب الشعبية ويعدّ مركزاً ترفيهياً واجتماعياً وحتى سياسياً.

ومن خانات شارع النهر التي يُعدّ إحاطتها بالميناء أمراً منطقياً، خان العادلية وخان الباشا وخان التمر وخان الدفتر دار، التي أكملت صورة شارع البنات، بهيَجان عيون زائراته السود ونظرات الرجال البوهيمية ولامبالاة الأطفال المصحوبين في حجةٍ لخروج المحبوسة بين الجدران الأربعة، تغيراته الأثيرية، مدّه وجزره الذي انساب منه بفضل النهر ونشوء شارع الرشيد وارتقائه.

الأنامل

لم يسألوا سابقاً عن جمال المخطوبة ولا عن شهاداتها، لا عن طولها ولا عرضها ولم يهمهم وزنها، بل كان أهم سؤال تسأله أم العريس: هل تعرف تخيط وتطرز؟!

لذلك كانت الأمهات يعلّمن بناتهن منذ الصغر الخياطة والتطريز، لاستكمال المهنة التي تثبت لها حتى في جواز السفر: ربة بيت.

ولا ينتهي الأمر بإجادة العمليتين، بل باختيار الأدوات والأقمشة والخيوط الملونة والإبرة والمقص وبكرة التطريز والأشرطة والخرز والنمنم وزجاجيات معينة وغيرها من المزركشات، وهذا الاختيار لا يتم إلا بزيارة شارع البنات.

والمحترفون في هذا الشارع قالوا بأن غزو الملابس التركية والسورية والهندية والصينية الجاهزة والمطرزة بالمكائن، قلّل من البنات اللواتي فضلن شراء البضاعة المطرزة أصلاً، فيما كنّ سابقاً يطرزن أحلامهن على الوسائد والشراشف، قلوباً وعصافير وأزهاراً.

ويبدو أن مقبل الشتاء، ساهم في تحريك الجو في الشارع، فهذا الفصل يطرح قماشه الذي يساعد على التطريز كالقديفة حيث يمكن تثبيت مختلف أنواع النقوش عليه بمساعدة رسوم جاهزة، تتوفر أيضاً في هذا السوق الناعم.

تبدلت أحوال الدنيا، وتنشغل الفتيات المغرمات بالتطريز بتثبيت الرسوم والأدعية الدينية على الجبّة الإسلامية والحجاب وما يظهر من «البلوز»، وتتدهور هذه المهنة مع مرور الزمن، وتطور الملابس الجاهزة وقلة الموهوبات وحرص ما تبقى منهن على البضاعة الرخيصة وانتصار الآلات على الأنامل.

المتاحف

حافظ شارع النهر على صاغته الصابئة الماهرين، أولئك الذين حولوا

محالهم إلى متاحف حقيقية، فعبر زجاجات العرض تجد مختلف الآيات القرآنية التي تفضّلها الفتيات الراهنات، وأسماء وعبارات حب وإهداءات مختلفة.

لديهم مسدسات وسيوف وخناجر صاغوها بجواهر وأحجار كريمة عمرها يتجاوز قرنين، وحليّ ينقشون عليها ما يطلب منهم المشتري، صور أو عبارات أو أسماء، تواريخ وأمكنة.

ساعات تثبت على غزلان وعصافير فضية، تحيطها أوراد وردية، أجراسها، أغاني العرس الحلوة وصَبا ليل هادئ.

أسواق

الحركة النشطة في شارعنا تبدأ مبكراً لتتراجع ظهراً، بسبب الشمس وقيظها ولأن الزائرات لا بد من أن يعدن إلى بيوتهن بانتظار عودة الرجال الذين لا يروقهم خلو البيت من النساء.

وبسبب الشمس في الصيف والمطر في الشتاء، فقد قاموا بتسقيف السوق، لذلك أطلقوا على جزء كبير من هذا الشارع سوق «المسكف»، المتخصص ببيع الستائر ذات النقوش الأندلسية والمغربية والعباسية، بالإضافة إلى اشتهاره بتغليف الأثاث المنزلي.

وفي الشارع سوق «المميز» نسبة إلى مؤسسته ومالكته حيث تنتشر فيه الملابس النسائية الجاهزة وأدوات التجميل والإكسسوارات، وفيه ورش الخياطة التي تموّن العراق بالألبسة النسائية.

ولا يقتصر شارع البنات على الملابس والتجهيزات النسائية فقط، ففي أحد تفرعاته ثمة سوق «السموأل» المتخصص بخياطة الملابس الرجالية وبيع الجاهزة منها، ويقال إنه أنشئ خصيصاً للراغبات أو المتخصصات بشراء ملابس أزواجهن.

وهناك سوق «الخفافين» الذي فيه مسجد ومقهى أدبي يحمل الاسم نفسه أنشئ من ٨٠٠ عام، وتفسير هذا الأسم أنه يهتم ببيع الأشياء الخفيفة ويشتهر بمهنة «الريافة» والعباءات الرجالية والعقال وغيرها من الملابس الشعبية. وبيعت فيه سابقاً الأحذية والخف الرجالي الجلدي والمغزول بخيوط بيضاء، ويمكن اعتبار التسمية مفهومة الآن.

الهرم

شارع النهر هرم بما فيه الكفاية، فالأماكن تشيخ أيضاً ويهجرها الناس كالناس تماماً.

ومع ذلك، فليس الشارع على شاكلة واحدة، وعلّمته الدهور التكيف مع متطلبات العصر والظروف، فقالوا في هذا الصدد، إن تركيز الفتيات حالياً على الجبة الإسلامية والحجاب، مفسرين بأن الحجاب في الظروف التي تمر بها البلاد، بمثابة «صمام أمان» للنساء، ووصل الأمر إلى أن مسيحيات وصابئات من فتيات البلاد يقبلن على شراء الحجاب ويرتدين الجبة الإسلامية أيضاً ليبعدن عنهن الشرور والأشرار، باعتقادهن المبني على مسرى الحياة وتقلباتها المضنية.

وشارع البنات أصابته عدوى شارع الرشيد وخموله، فقد هجرته

فتياته ونساؤه ليقبلن على أسواق العرصات والمنصور و١٤ رمضان وشارع فلسطين، فالكثيرات يعانين غزو «ملابس الفضائيات» للأسواق، الأمر الذي جعل التقاط ملابس «مناسبة» من شارع البنات أو غيره، أمراً صعباً.

الشامل

مثل مرآة ينصهر شارع البنات مع شارع الرشيد مثبتاً بأعمدته، متوارياً في تفرعاته، كأنه يعود إلى جسده، لا تبعده عن ضفة دجلة وجسورها، غير موجة متحدة فريدة، تباغته برفقة أسلاك أرادوها شائكة، في زمن يستغرق كثيراً بولادة الزوابع وتلكؤ البهجة.

الشارع يستريح في ظله، إذ ما ابتعدت عنه فتياته يستوي قبراً في مدينة مهجورة، والشارع يتوارى إن قل العابرون والماشون عليه وفي ندرة الزيارات الوجيزة.

والبنات اللواتي كنّ شموله ونظرته وكبرياءه، تحولن إلى «سابلة» أو عابرات طريق فحسب. فكرته الملفوفة بتاريخ بغداد و«الخاتون» التي تهوى التقاط القلوب عند زواياه المغمورة، راحت قبل نهايته وقبل أن يكمل القمر مداره على تلاشيه.

تركته الفتيات والسنون، محجوب عن الأبصار وعيون الصباح الممتلئ أغاني وصبايا ومرح الخطوات وقصر الكلام واحتشاد الصدى.. وعمقه الذي كان مدينة بوصاياها وحكاياتها ونزواتها وكل جبروتها.

انطوى زمان «ممر الكرنفال» الذي كانوا يسمونه شارع البنات وشاخت شبابيكه وهرمت شرفاته كمن أسرف في عشق الماضي وتأنق أيامه، فهو الشارع الغريب في استيقاظه والتاريخ الشخصي للرجال والنساء الذين التقوا فيه لأول مرة وفيه عقدوا زواجهم، فأي سوق أو شارع فيه مساجد وتكايا، محكمة زواج وقبور، مقاه ومعامل، خانات وملاهي!

مثل كوكب صغير كفّ عن التظاهر بمعبر الغيوم التي مرت عليه ثماني قرون لم تنتب جدرانه الوحشة كما الآن، طاووس يُنيم ذكرياته.

بهجة الجميلات الصابرات

«لما رأيتك وحيدة، حلوة وثابتة
شعرت أنني مدفوع للانطلاق
والتحليق معك على جناح البلور»

ـ خيراردو دييغو ـ

لا شيء يبذل البهجة في شرايينهن ويخفف وزن قلوبهن، غير شعورهن بأنهن مكتملات وأكثر اكتمالاً من لحظة فاتت، فائضة بالشوق أو ممتلئة بالمعاني وبالعاطفة البسيطة.

واكتمال الطلعة لا يطالع بكراسة أو ملحق مجلة متخصصة، ولا في زوغان عيون الزملاء في العمل، بل في ذلك النور الذي لا تقاومه نوافذ ولا ستائر، ما يشعرن به وقناعتهن الوثيقة بأنهن الأجمل اليوم وغداً، مهما شبح الفارق في العيون واتّقد فحم الفؤاد.

وهنّ تكور لصراع الإهمال والكمال، سعيهن لاختطاف المهج وشد وثاق الأفق بما يبرق تحت الرموش، الإلهام الذي لا يلين، الكفاح لغاية آخر بسمة، إنه النضال الشريف، والأكثر نزاهة في الإنسانية،

ذلك الذي يرفعهن درجات ويثبت أقدامهن ويطرد عنهن الكوابيس وحكايات الأبراج.

السعي الأرجواني لأن تكون أجمل دوماً، مثل معنى صعب الإمساك وحسّ لا تملكه غير الذات، كأن تذهب بالموجودات إلى افتراق، كلّه رضا ما أن تقبل الفاتنة التي تسري مع خطواتها الروائح المدخرة، في أن تحيّر الناظر في ما وهبت، مغالاة في الأناقة وتشبث برسوخ الذوق الحلو، خطواتها بهجة متنقلة، زهور وأكاليل لا تكتمل إلا بها.

المؤامرة الوحيدة في هذه الدنيا التي تجعلها أحلى، في أن تنزوي فريدة، دافنة اللحظة الهاربة، في أي فضاء متاح، لتعمل أنامل أخرى مرصعات لتحيل ارتدادها ذرات لا متناهية، غير منفصلة، ملتئمة على الدوام، تكسو ثمرتها الحقيقية على أوراقها، عند العارفات والمولدات فرح مهرجان السيدات في: صالونات الجمال!

سنوات العزلة

والنضال في أن تكون أجمل، منسوج في أوردتهن ومثوى خفقانهن ولا سلطان لأحد في أن تصبح أو تكون ولا تكون.

وصناعة الجمال ليست طلاء زينة فقط، إنه تعبير وتفسير واستعادة ونشوة وإصلاح وجمع فتات الجمال المتناثرة وصقلها بما يشعرن من أحاسيس.

إنه مؤامرة الخيال الصائب على الواقع الكسول للأهداب والحواجب

والرموش والأظفار وكل أوراقها المزهرة، جهد متراصّ بالغ المهارة والصعوبة، ليس بمستطاع مجالس وقرارات وحرمان وعزلة وقناة أرضية واحدة وبضع مطبوعات مستنسخة الحد منه، فهو الدورة التي لا تتوقف كالألوان التي لا يستطيع مخلوق محوها، فالجمال هبة تكسو الوجوه وتلون القلوب، هو ليس ظلالاً ولا وهماً ولا سيأتي بعد حين، كالنور المستحيل الانطفاء.

هذا سرّ مقايضة الجميلات العراقيات، المرأى بالصندوق الذي عبثن به، في أن يكون مظهرهن مغلفاً بالعبء والخوف والحاجة والنحول والمساحيق المغشوشة والمستحضرات الغبية، ما يبدون عليه، لا ما ينبغي أن يظهرن عليه.

كان صبراً على ضيم وليس تقبّله، فالجمال المنتهك يبقى جمالاً، حتى تنتهي خشونة الفجر وتهوي الستائر والأستار وتبطل الحياة من تناثرها، ليبقى الطائر في نهاية المطاف المرّ، مغرداً، بالنغمة نفسها التي جُبل عليها، هو ذلك سرّ مقايضة الجميلات العراقيات بين المرأى والعزلة.

رجال واحتجاج

لم تسر الأمور بشكل هيّن، فتكتل النساء مع أسرارهن، طمأنينة وعلامة تميزهن مثل غموض القوقعة. وإن تكسر جدران هذه القوقعة، فلا أمل في أن ينتظرك أحد أو يحاول التحليق مع عدستك.

الاتكاء فقط على المواهب الأخرى يمدّ الحبال ويذيب الجدل إن قام ويمهّد وصالَ الثقة ببعض العسر.

يبقى التأكيد على أن أبواب صالونات الجمال التي أغلقت في بحثنا، أكثر من التي فتحت، والاعتراض لم يكن من أصحاب الصالونات، بل كان التهذيب يتطلب أخذ الإذن من كافة المريدات للدخول والتصوير والحديث، ولأن أغلبهن محجبات، لا يكشفن عن أحوالهن أمام الرجال، فقد كان رفض واحدة فقط، يؤدي إلى رفض الأخريات.

والصالونات التي مهدت لنا ترجمة هذا اللون من الحياة، كانت كافية لقناعة الدأب وأجابت عن كل أطراف المساجلة.

وكان الأشجع ممن طرقنا عليهم الأبواب وفتحوها لنا آمنين، مسرورين بوضوح رقيق: منتهى وإسراء وريتا وأحمد وهند، هؤلاء من ألغى المزلاج وساعدونا على الإمساك بأطراف الغزال الذي يجهدون في صناعته بعملية تسويق الجمال إلى الجرف الآخر من الدنيا.

زواج فجمال

كثرة الأعراس في رمضان مسألة التوقف عندها أكيد، لكن ما يربط الأمر بقضيتنا الراهنة، هو النشاط الكبير لصالونات الجمال في رمضان والمرتبط بحفلات الأعراس.

فالصالونات الكبيرة وحتى تلك في المناطق الشعبية محجوزة تماماً نصف أيام الأسبوع، ليوم الخطبة والعقد والحنة ومن ثم الزفاف، ومن الصعب جداً العثور على كرسي تتجمل فيه المرأة ولو بالرشوة.

والصالونات المحجوزة للأعراس لا يمكن الاقتراب منها، لأن حرباً حقيقية ستندلع إن حاول رجل غريب الاقتراب والتصوير، لهول الحماية المسلحة للأقرباء، التي تنغمس باختلاس الفتيات للنظر في تطلع هذه الأعياد المستمرة.

اقتصاد وتاريخ

لا تشذ صانعات الجمال في العراق عن القاعدة المعروفة لدى أبناء هذا الشعب: ولعهن بالحديث في أي مناسبة عن التاريخ والسياسة ومن حولهما الوضع الاقتصادي.

وكانت منتهى صاحبة صالون المربد، جادة في طرحها مسألة ضعف الرقابة الرسمية على هذه المهنة التي تعتقد بأن الكثيرين وحسب وصفها، من هب ودبّ دخل فيها، بعد أن أعطى كل واحد الحق لنفسه بتبنّي المشروع الذي يرغب، وفي ما يخص هذه المهنة المعقدة كما قالت، فقد قبلت في المرحلة الجديدة للبلاد الكثير من الطارئين الذين فتحوا صالونات بلا ترخيص وأثروا على العمل من ناحية تدهور الأسعار ونوعية إنتاجهم للجمال.

وزادت على ذلك بقولها إن الكثير من الصالونات غير المرخصة بدأت تفتح في البيوت، ويكفي صاحبها تعليق إعلان على مدخل شارعه أو بيته ليستقبل الزبائن مباشرة في مكان سكنه، مؤكدة أن هذه الأمور من المستحيل حصولها بوجود رقابة ودولة منظمة.

والسياسة هي الوضع الأمني الذي قالت عنه ريتا بأنه خارج نطاق عملهم، فلم يتعرض أي صالون للجمال إلى سطو ولم تتعرض أي

من الزبونات إلى خطف!

وبالرغم من عدم حدوث ذلك، فإنها شبكت صالونها بسياج من الحديد وأصبحت أكثر حذراً من السابق، وتغلق الصالون في وقت غير متأخر لا كما كان عملهم يستمر إلى ساعات متأخرة، حيث الكثير من الأرستقراطيات يفضلن المجيء إلى الصالونات قبل ذهابهن إلى السهرات في النوادي الخاصة.

وحديث الاقتصاد تركناه لإسراء التي قالت إن الأسعار بالنسبة للشعر القصير ٣٠٠٠ دينار والسشوار ٢٠٠٠، أما الأسعار الأخرى فتعتمد على القص ونوع التسريحة وترتبط بأسعار المكياج التي تختلف حسب الطلب، فثمة مكياج الليزر والطبيعي، وتجميل العرائس ومن معهن يختلف عن تجميل العابرين بالصدفة.

كذلك فإن بعض الزبونات يجلبن مواد المكياج والزينة والغسل والصبغ وغيرها معهن، فلهذا يدفعن أتعاب الصالون فقط.

والطريف أن منتهى أكدت أنها كثيراً ما واجهت مواقف محرجة، فبعد انتهائها من تجميل سيدة ما، تقول بأنها لا تملك نقوداً أو تعطيها نصف المبلغ، فمن الدين ما تسترجعه ومنه ما تنساه.

وعن الفوارق الطبقية في الصالونات، قالت منتهى إنه بالرغم من كون صالونها في منطقة راقية، فإن ذلك لا يعني بالضرورة رقيّ العمل وجودته، فحسب علمها، توجد الكثير من الصالونات في الأحياء الشعبية، أمهر من مثيلاتها في الأحياء الراقية.

حسب الموضة

دلّتنا هند صاحبة صالون طيبة والتي تمتلك خبرة كافية برغبات العراقيات، على أكثر موضات التسريحات التي تستهويهن عادة، مشيرة إلى أنها تعرض عليهن مقترحها الذي تنفذه في نهاية المطاف مع بعض الأمنيات من زبائنها.

والقصّات أو التسريحات التي يفضلنها على الأغلب هي: «الفرساجييه، سايكل ستيبس، ستيبس مشفر، دلص، كاري مدرج، كلوش، الفرنسي» وغيرها.

هذه التسميات أصعب من المصطلحات الفيزيائية بالنسبة لمثلنا، غير أنها متداولة جداً بين هاويات التردد على صالونات الجمال.

وقالت هند إن زبائنها، مثل النساء عادة بشكل عام، مولعات بما يشاهدنه في المجلات والتلفزيون، من مطربة أو مذيعة أو فيلم سينمائي. فالكثير جداً من المرات يأتين بنسخة من المجلة، ولو تطلب الأمر يجلبن فيلم فيديو ليعرضن عليها التسريحة المطلوبة.

بالنسبة لهند هذا النوع من الطلبات ليس غريباً عليها وتواجهها على الدوام وترى في ذلك نوعاً من العمل الصعب، يفوق العمل في التسريحات التي تجيدها.

فالاطلاع، حسب هند، على التسريحة أو الموديل في صورة أو فيلم، لا يكفي لتقليدها بشكل مناسب، لكنها تصر على أن الخبرة خير منجية لمثل هذه الرغبات والمواقف.

الماستر

لطول مراسه واختلاطه بالنساء، لأحمد صاحب معهد وصالون «أريدو» للنساء، صوت رفيع بالكاد نسمعه، يختلف عن ذلك الهجوم الذي قاده في البداية على النظام السابق الذي حرمه من متعة ممارسة هوايته التي تدرب عليها في البيت بداية حياته.

قال إنه كان ممنوعاً عمل الرجال في صالونات النساء مهما كانت المهنة حتى لو فراشاً أو حارساً! ويرى أن مثل هذه القرارات غير المفهومة دفعته لأن يكون حلاقاً رجالياً بالرغم من أن موهبته تبرز مع النساء أكثر باعتقاده، وشدد على أنه مهما كلف الأمر فلا يستقبل الرجال في صالونه.

وأثار مسألة بالغة التعقيد من الناحية المهنية والنفسية وربما الاجتماعية، وهي ميل النساء للماستر الرجل (لم يستخدم مفردة حلاق) ولا المرأة، وحاول برهنة نظريته بالقول إنه متأكد من ذلك حسب الخبرة، فقد عمل طويلاً في هذا «السلك» ويدرك بأن المرأة تحب جداً أن يزينها الرجل. وتعليله بأن المرأة تشعر في الداخل وبعقلها الباطن بأن امرأة مثلها تغار منها ولا تجملها بالطريقة التي تريد حتى لا تصير أجمل منها.

استرسل أحمد طويلاً في شرح هذه الحالة وإثباتها، وعاد ليؤكد: أما الرجل فهو يتعمق في جمال المرأة ويفهمه وينفذ ما يحلم به في وجه المرأة، ونظرته لجمالها كرجل هو ما تريد المرأة الوصول إليه، هذه النظرة هي التي سينفذها بيديه وعقله وقلبه وكل أحاسيسه.

«سحّارات» وعرّافات

في واحدة من مرابطات المراقبة أمام معاهد النساء والصالونات، أثارنا مرور نسوة بعباءات وبملابس وأعمار لا تشي بأنهن يتجملن هناك أو يصففن تسريحاتهن، يبقين بعض الوقت ثم يغادرن، فما هن فاعلات في صالونات التجميل؟!

تبين أن لديهن مواعيد خاصة مع نساء خاصات جداً، يكون وجودهن في «الكوافير» مسألة طبيعية أمام الزوج والمجتمع والأهل عموماً، لكنهن في حقيقة الأمر وبالاتفاق مع صاحبات الصالونات رتبن مواعيد مع العرافات وقارئات الفناجين الماهرات للغاية والسحّارات بشأن أصولهن وفصولهن.

فأم فلان وأم علان، لديهن ملحق بغرف سرية خاصة يمارسن فيه هذه المهنة المثيرة للجدل مع عليات القوم اللواتي لا يستطعن الوصول إليهن في مناطقهن الشعبية عادة، فلا «سحارة» واحدة في العراق ثرية، وكلهن تقريباً من الطبقات المسحوقة.

خاطبات

ولبعض الصالونات متعهدات جمع رأسين بالحلال، وهذه المهنة الشعبية انتعشت في زمان زيادة النساء على أعداد الرجال في البلاد والمعروفات بالتسمية: الخاطبات.

وبعض معاهد النساء وصالونات الجمال، معاهد نساء بحق وحقيقي، ففيها تجد أرشيفاً متكاملاً بالراغبات في الزواج، فيه

معلومات كثيرة وصور مختلفة وبالألوان، ويتقاضى الصالون نسبته في هذه العملية من الطرفين، بل من الثلاثة، الخاطب والمخطوب والخطّابة!

مراسيل ومواعيد

ولقاء بضعة آلاف من الدنانير، تدبر لك صاحبة الصالون أو واحدة من الفتيات اللواتي يعملن فيه، لقاء مع حبيبتك، والعملية بسيطة، حيث تأتي المقصودة بالموعد، لتنتظر أن يمر بها المعني بأمرها، يجلس في السيارة، يدق هورن (بوق) السيارة بموسيقى معتاد عليها، لتخاطب المسؤولة عن تنظيم المواعيد، المقصودة بالهورن: زوجك وصل!

وللواتي لم يصبحن حبيبات وللذين لم يستووا أحباء بعد، لا بد أن يمروا بالمرحلة الأولى في صالونات صناعة الحب، التي تتكفل بإيصال الرسائل المكتوبة والشفهية للتي يخرس لسانك ما إن تراها وتتلعثم ولا تقوى على الوقوف أمامها لحظة واحدة، فتقوم بتدبيج رسالة حب وإيداعها في الصالون الذي يقوم بمهمة المرسال على أفضل وجه، لقاء أتعاب الحب.

كالأصابع

ليسو بالتأكيد على شاكلة واحدة، صالونات الجمال ومعاهد النساء المطروحات هنا، وما ذُكر، تمارسه بعض منها لا كلها بالطبع.

وتبقى هذه الأماكن، لحظة تنزوي فيها المرأة إلى نفسها لترى ما لم تستطع رؤيته في نفسها أو تسد نقصاً لا تقوى عليه وحدها

ومحاولة لتعزيز الثقة في النفس والارتياح في الروح واستعادة شباب مضموم يثوي كخمائل، وإيداع الزهرة الشاحبة نداها في زوايا ابتهاج الجميلات الصابرات.

هروعها إلى العيد لفضّ الغيظ

«صَلِّ لي كي أُحسن دعوتهم إلى العيد»

ـ أنسي الحاج ـ

ما أن بلعت ريق الصيام بمشقة، تساءلت البغدادية الواصلة نصف العمر أمام المرآة: يا له من ادعاء، ما هذه الملامح سوى انعكاس لأشياء تبددت في المرأى وهذه التي أمامي لا أعرف اسمها!

وكما لو شمّت بخوراً عتيقاً، لفّت رقبتها متوالية هذيان أشبه بنشيج نائبات بسط ذاكرتها نحو ذلك اليوم المغبر الذي ألقت وراءه الماء وسبّحت بحمده، غير أن الماء نشف ومرّ خمسة وعشرون شتاء بها وهي تمرق الحصى البراق النافر من أسفلت زمان الملوك.

حاولت استرجاع لحظة الرحيل، ليتاح لها تصديق سطوة المرآة وربع القرن التي دقت أزاهيرها ومحت وهجها وأشحبت أطيافها وماجت في ألوانها. هفّت لسماع أحرف الوداع التقليدية حيث تزدري الأستار لتبلغ ألماً لا يحتمل، أن أول يوم للعيد كان التقاء ساعات السهد وأطلال أحلامٍ غزلتْها خيوط اخضرار منبت الحديقة التي يحبها.

لا مراء في أن تتلمس شعرها المبيضّ الذائب في الأنوار وجسدها المتلاطم الأيام لكي تسترسل في استرجاع رماد آخر يوم اصطحبها لاستقبال العيد مع طفلتيهما الودودتين كحرية أجنحة مصوغة في غابة.

لا مراء في تمزيق الشخص الواحد الذي تقمصته لتخرج إلى هذا اليوم الأخير عبر الساحات المخنوقة بالبشر والضاجة بالهمس والزعيق والطبول والأسحار، دوحة مراهقات وحناجر رجال تقرب المنايا أطلت عليها ما أن فتحت الباب القديم الذي طالما لحن اسمه مع الرياح والأمطار وزئير الليل الذي تضاعف في حواس النسوة الثلاث المتراصات مثل سدرة أدبر عنها الثمر.

فرط خيال

العالم الجديد الذي رأته مبطئاً لا تعرف كنهه، والنسوة المتزاحمات كعطر نافورة لم يفصحن عن أفكارها الطيبة، الكسولة، عن تلك الأيام النائية. ساورها الشك في أن دهشتها الشديدة بما يحصل، لكونها أصبحت أكثر ثقلاً من ذلك اليوم الذي كانت تسند أعصابها إليه، ليتولى بنفسه مضايقة الباعة بالأسعار التي يشتهيها.

الأصوات السليطة لم تشعرها بالمهانة، بل بالضيق من أن شبح السوق يستردّ احتماله وأن الناس ما عادوا يحملون النجوى، وأن الضلال تهرّب من بين حواف نعلها ليغبر اليوم الذي قررت فيه تعويض صغيراتها عن ربع قرن من وحدة السجينات المنتظرات.

لم ترضها الدفعات التي تعرضت لها في الزحام وكانت تتمنى لو يعتذر لها الزمن الذي صمدت بوجهه وأن يضمنها البيان الأول للتحرير، وأن تسير رافعة الهامة في يوم ثأره. غير أن الهدوء السحيق الذي لا يصدق، عزلها أكثر مثل حاملة أوانٍ، تلك التواقة إلى أن يتوزع قهرها على خلجان نفسها كي لا تشمرها الأيام بعيداً عن منزل المراهقات الجميلات الغائصات بالأشعار وبقصائد أبيهن الخارجة عن القواعد والمألوف.

صففت لهن الرِّيَش على القبعات وطرزت على حواف وساداتهن الدموع بعد أن بللهن النوم والانتظار، في أن يرتدين الأنغام نفسها التي كان يستسلم حال سماعها بروح شاردة لا تشكو، فماذا لو امتد به العمر لينشد لهن قصيدة الرحمة، الهائلة، الرائعة، الثابتة بأمواج الكلمات غير المشفرة لأحد، بالقوافي التي لم تنسب إلى جهة، بأعماق الواعظين ومهارة الراوين وفصاحة النابهين، طمأنينة الحرف حين يرقد على كف الصائن نصّه.

ملجأ الأم

حين أغلقت بابها، سدت قلبها: ملجأ أم اليتيمتين الصغيرتين.

ملجأ مثل وشاح لعزل الناموس ونار تطرد الذئاب وجدران تقطع

حبل السكون والتباس ركام الحزن إذ يعوي بلا انقطاع وانطفاء الكآبة في تخوم الوجع وفتات الدهر المقطع الأوصال وأحشاء المرارة في المدينة الكاكية وإسفنجة الترقب الماصة حدقات العيون والشكوك، الشهيق بومضة والزفير بانفجار يعقبه صراخ وتمايل بختها وانفضاض البراعم بما يسير في كسوفها، رجل اللحظات المتردية واللحن والرضا والأعناب المتسلقة على كسوة الشتاء، الشعاع الوحيد الموروث من الشمس السابق للحياة ومهج البلابل واللامّ الشمل في فضاء التودد.

ملجأهن القلب وانقطاع المكان بأرجوحة السرّة الممعنة الجنون، بالتهديد المستمر في أن تمنح لقب الأرملة ولم تكمل العشرين بعد، في أن يستقر في وداعتها الدعاء: حمداً على الوحدة، حمداً على الرجاء، حيّ على الأزمنة الطويلة، سبحان مالئ البصر ودافق السمع ورافع طنين النواح.

منزل اليتيمات الصغيرات، المنعزلات في العبارة المفاجئة والالتباس والقصد والإصغاء للعدم والمنطق والصلة وما من أحد في الحجرة بانقضاء آلاف الأيام: ملجأ الأم!

طالع أرملة

بانقضاء الأعوام الخمسة والعشرين من رحيله، اصطفت في خاطرها هدية العيد، دَين ما حملته أهداب الماضي، للفتاتين المسكينتين بما ملكت آمالها بكثيف ملح لهفتها ونفسها الداكنة.

ومثل نهار لا يروى، أدركت بأن العالم خارج الحجرة التي تكلّست

فيها، تبدل كثيراً، فشعرت كأنها طافية في جوف الحافلة التي حملتها إلى شريعة البيروتي كي يتسنى لها عبور النهر بالقوارب القديمة التي رافقتها في أشد أيامها ضيقاً.

بدت دجلة قسطاً واحداً لم تنو النظر إليها، فهذا العالم الذي لن يراه أبداً، وأيامها ليست سوى عجلات تحمل عليها صغيراتها الجميلات، هذا النهر لن يطلّ عليه بعد الآن ولن يراه ولن يسمع زمجرات الزناجير وأبواق التحذير ومروحيات الهوى والفرص المتوانية وحذر المشاعر والتلاعب بالقول ومكر الفعل.

ململمة عباءتها، خارجة من النهر إلى حلق شارع البنات لتواري رغبتها في طلاء صغيراتها بقماش مطربة البارحة التي شققت رغبتهن في تقليد ملبسها.

تزاحم زمن

هنا يحتفظون بخواتم الأميرات، جادات الملابس المفرطة الزحام، وعلى نواصي التكايا وصناديق الزجاج سجون العرائس ومانيكانات الحلم ذوات الأقراط الملمعة والنظرة المبهمة الصامتة كمن قرأ برقية موت بلغة لا يجيدها.

ما أجمل العرائس السجينات في الخيم الزجاجية وكم مفرحة السلال المتدليات قشوراً وأزهاراً! أمسكت بتلابيب باروكة جافة، فتناثر الشعر مثل جرح قديم، فأضاف لارتباكها رذاذاً يعدو، سقط متكوراً ما أن تعثرت نعلها بصندوق أفلام مستنسخة.

لم يسعفها تدافع البشر في انتقاء عبارة اعتذار من صبي الأفلام المغشوشة حيث ألقت بها الجمهرة المنحسرة مع أصوات الحمالين باتجاه باقة فساتين تليق معها تلك القبعات الحائزة عليها من ذخيرة الماضي.

أسعفها منظر الفساتين الملونة في استعادة حياة ما قبل الخمسة والعشرين عاماً، فأمسكت بترددها، مرتابة في صحوة رغبتها في أن تدس جسدها في واحد منها، لكن ضنى أسرع في ابتلاع رغبتها، في السؤال الشرعي الذي ملأ يقينها: يا أسفي، من ذا سيكون قربي حينها!

اختطفت قدرتها لتزيين صورة الفتاتين المنتظرتين هديتها ووضعهن على قامة المانيكان، لتقرأ الهزة التي ستحرر عزلتهن من تصفد النوافذ. لم يجل في خاطرها غير ذلك التناسق بين قامة السجينات الثلاث بهروب أغصان الفساتين الموردة وتلويحهن بفتنة الاكتمال، في أن تسري بهن إليها وتجعلهن لها، بالشفق المستغيث احتشاد الجمال في حجرة.

سنين القفار

انظري إلى الفضاء كيف تغير وإلى النهار كيف ازدحم بالفقراء، إلى فتاتيك وعالمهما الحزين، إلى السحب مغطية إبهار العيد، إلى الليالي التي غصت في جدائلها بلا طائل، لنفسك العطشانة والعريانة والمرتجفة الأشكال، إلى سير دورتك الدموية واضطرام كهرباء رئتيك، لهمسك واختناقك في أن يعود من الأيام زبدها ومن الساعات بياضها والصخور عتمتها والحشائش لدغتها الآثمة.

اهرعي كتلك الـ «بنية» العاشقة جداً، وجهاً لوجه وجسداً لسماء وخميلة لتجوال، لكي تبقي للموعد مهابته ولنبل الحب جوهره واطمئنانه، كي تغار منك الأميرات وتصهري ذؤابات الصبّار، بما يحمله الطاهر فيك إلى ميلاده، عنك، بين درس الأعمال وثمارها، يناعة النجم وانسكاب النور على مرآه.

تمددت حسرة في بوق حلقها لكنها انحسرت بآهة مستعجلة: أبعْد خمسة وعشرين عاماً من الانطمار في حجرة تخرجين في يوم النار ومنع التجول وقلق الهواء وتيه السلام!

مخرج الأوراد

أدارتها الهواجس حول نفسها، لكن احتباس الشارع بالناس داس على تفكيرها ودبّ على نأيها، ملقياً بنظراتها على الأحوال وكيف ازدهت والبضائع وكيف تبهرجت واللظى حين أمهل الدروب.

ببشرتها الشاحبة المتصببة عرقاً وغيضاً، انتزعت خاتمه الذي لم يفارق كفها، واضعة إياه على طاولة الصائغ الشاب الذي ما أن لمسه حتى هتف بسعر لم تقدره كما ينبغي. لكنها أردفت: أريده بسعر الفستانين، هناك، الورديين!

حتى بغيابك تسنى لك أن تشارك في صنع هدية جميلة لهن، فلا مخرج آخر لبث الأوراد على حدائق فتاتيك ورتق فراشاتهن في سرعة غيابك وطوله المؤذي، بحوافر ابتعادك والضحى النافر من صورتك القديمة.

تصلبت كفها ما إن غادرها خاتمه، ولم تشف غليلها وريقات النقود التي أضحت، بعد ثوان من عمر محنتها المديدة، فستانين ورديين ومضت نشوتهما في أول لحظة سيطل مقبلهن على جدائل أغنية شابتين وحيدتين للغاية، أجفلت عنهما الدنيا وما فيها، بصخبها وعنفها، وكلمات أبيهن الشاعر الذي لا يحضر اسمه أحد، والذي لم يبطل المطر دق أحرفه على حيطان الصفيح المكومة تحتها أجساد الجميلات الثلاث.

الحب في بغداد

حكايات اللقاء والفراق

كان يا بغداد
كان يا من كان
حرفان غيّرا الأحلام والغفران، أوغلا في أنوارك المحرمة
وحنانيك وعريك الهادر وفتورك الفاقد الذاكرة..
حرفان يا بغداد، تبادلا وإياك السقف والحيطان، اللذة والجنان
القاهران أغصان القلب وعشبه الموارد..
بانعطافته وتودده وتعقله وإصغائه المحيّر
ينبوعان إن شفّا، قرف الندم وابتلت الرتابة وماجت
الهدايا الطيبة..
كان في بغداد..

فاتحو ثغور اليأس وانبهار الذات وانسياق اللحظة.. المسعى!
فيك الرائي والمرئي
الجاد والمستجدّ
الهام والملهم
قصير التشاؤم والحافل بحماقات الدنيا، قطاع الطرق والشعور
المظلم ونسق البراءة.. إن صمت القلب البسيط.
ألوذ بك..
من دمعي وتراقص دواليبي
في مغارتك، أحجب الفرحة الفردية وأعمم ضخامة الصرخة
ورفقتها وتعريفها..
فمنهم من قضى قلبه
ومنهم من اشتهى ائتمان السرّ
ألوذ بك في إيوائك وشحوبك وازدرائك وتفجر نزوحك
يا مضيافة اعترافي واشتغال اشتعالي وسخونتي الهنيئة
وماسحة
الغبار عن زجاجة روحي
أساق إليك حيث يجيء الخيال المقسّم
على الأشواق وما تلاها، بنور الذات وما حباها

يا يأسي المرهف، ألقاك في القدر.. الهيّام.. يا كوكب المحبين وشتاء الصواعق والنبضات المحرمة: لكل من أبصر الحبّ وظلّ عليه وأحسّه أبدياً، كفحيح أوردة لم تقهرها شجرة الحديد.

ولكل من طارد اللذة وصاغ ببخار كلماته الشعر الشفوي لحبه الوحيد، لنغمة الدهشة والحب الجارف، مَن في الفصول المتهاوية، يلتحم كل الحق معه.

كنّا.. وكان في بغداد..
وكان.. يا ما كان
حبّ خليق بحبنا وفراغنا المشفق
كما كان وأحسسناه
مضرّج بالحرية.. مدجّن بالنيران والولادة الغريبة
كان يا أصحاب.. كما كان
كما تمنيناه.. في أعمق سوء الفهم
ودلال الشمس
الأول.. والثاني والثالث.. حتى الممات
الحب في بغداد!

□ □ □

الشعب الذي لا يحب يموت من البرد. عبارة لم أسمعها كما جاءت، لكنني أعدت صوغها كما فهمتها، للعراق الذي صدّر الحبّ إلى الإنسانية منذ أناشيد سومر الأولى لأنكي وأوتو وأم الحب العراقي أنانا حين يقول لها المحبون، مبتدأ بالفلاح أنكي:

أنت التي جعلت الأشجار الكبيرة تنمو
أنت التي جعلت القصب الممشوق يتكاثر
أريد أن أعزق للحصول من أجلك على هذه النبتة

وهذا الراعي دوموزي يدعوها للحب:

أيتها الصبية، كل ما ترغبين

سأقدمه لك يا أنانا... الحب

ولأم الحب تعاليمها، وتختصر مشروع الحبيب بالنص:

سيوسع بيتي وسينصب فراشي المخصب

سيغطيه بالقماش الأزرق

سيضع يده في يدي وقلبه على قلبي

مَن غيره صنع من أجلي!

سأسهر على بيت ـ الحياة ومستودعها المديد

سأحفظه لك فقدموك يبعث الحياة ويحمل الكثرة!

ويجيبها:

يا لصداك العذب

سأجعل نغم المخصّة يتردد من أجلك

علّني أنقل الفرحة إلى قلبك

سأبهج روحك أنانا

وأتأوه في حضنك لأتمكن من تمديد حياتي

آه.. أنانا، عندما يحل الليل سيدخل القمر بيتنا

كوني عيداً يجعل الوجوه مشرقة

أنتجي الحب لي واسكبيه أمامي.

اللقاء الحديدي

الحلوة، الصافية العينين، المحصورة بين الجدران الضليلة أحصت

أصوات القذائف، ومع كل واحدة تنزل على رحم المدينة كانت أصابعها تتقشر من العض وبشرتها تسوح ألماً، وهلعاً عليه، وعليه فقط. فقد كانت تحسب كل القذائف موجهة إليه.

وبعد اندمال الحرب واقتراح المسرفات دائسة أنامل البلاد، عانى نصف المحبين في بغداد من فقدان العنوان.

نصف المحبين في بغداد كانت تجمعهم الصدفة المخططة: طريق الدراسة، الكراج المؤدي إلى الوظيفة، الأمتار القليلة الباقية إلى الوزارة أو حضانة الأطفال أو المستشفى أو الدائرة العقارية ومهجع البلدية.

نصف المحبين في بغداد، تسوقهم أقدامهم إلى الحب، فياضاً، إن رآها وراء الحجاب المدرك لمآرب الحملقة..

نصف القلوب البغدادية تتسلل مع الشمس وتتلاطم مع قرع نواعير المركبات، وذاك يوم انتصار لو جلس قربها في الميكرو باص بإذن من شفقة الأقدار والدعاء الطليق، الصداح، المتلاحق في العيون المستقرة.

ما إن يجلس قربها ويمس الدينار في كفها، في خلده وباطنها، العجائب الغائرة في السماء السابعة واكتناف نمرتها الفائرة وخيوله الجامحة.

يجلسان في العلبة الحديدية ويمني نفسه في أن يكثر الشارع من حفره ومطباته، علّ الطسات ترمي جزءاً من زفراته نحوها، الساكتة

الملمومة الثلمات والشاحبة من سوء التغذية، قمحها متعطش للماء ونفير لمسته المبهمة.

تعصف حركاتهما عيون كئيبة كطيور مجروحة تواً، لكنهما يدعان نفسيهما موثقة بالحجرة المتحركة حد مسافة الشوق وسياج الشغل الذي بدا واضحاً.

تنزل، فيبلل عينيه ملمحُ تنورتها التي لم تستبدلها للسنة الثالثة، فيشق أنفه المعرق بديهية العودة مجدداً إلى ناصية الشارع بانتظار مطلعها حتى مقبل غد عاطل جديد.

اللقاء المؤجل

بعد صمت، قال الشاب: أتمنى أن أرى حبيبتي عندما أريد!
يا لها من أمنية!!

قبول سماعها يحسّن ويصفي أدراج الحديث، لكن هل تعد أمنية، أن يراها؟ هل أصبحت رؤية حبيباتنا أمنية أيها الشاب الشديد الحزن!

يتأوه: من بداية الحرب وحتى انتهاء الخطر القاطع لم أرها ولم أعرف عنها شيئاً، كيف لي أن أراها؟ لا خيار أمامي سوى تجسيدها وتقريبها ومراوغة ألمي.

هكذا ضاقت الحياة بمحبين وبلغت فورة هيامهم، ولع يسير ذيله وراءهم، تراه في تخبط أقدامهم، نعم، ظهر للمحبين في بغداد ذيل!!

لقاء النهر

في خشية صبيحة النهر، وشكّها: مسطّرون من كل زوجين اثنين، لا يأخذهم منظر أنيق، لا يبان منهم غير ظهورهم المقوسة والمهتزة نشوة أو انفعالاً من حكاية الخطيب المتمكن الجديد. مصفوفون على عتبات النهر الإسمنتية المبنية بفعل أوامر رئاسية لتذعن أقدام المارين من الدوس أكثر على أرض القادة المتطرفين مع النهر.

لم أكن مضطراً للتوقف وإحصاء ألوان رسائلهم للنهر أو العكس، لكن تضاعف الأزواج مع عودتي، في تلك الظهيرة، أسرى السؤال: ألا يشعرون بقيظها وحرها ولهيبها، شمسنا الضالة!

قبل تدلّي السؤال، انفرج العتاب: أنت تسأل هذا السؤال؟ أنسيت أن الخواطر تفلّ الحديد، وشعرها المذيب رنّات العرق المتصبب على بخار هواك، وجسدها المرويّ إن تصور مع كلماتها، ضجّ انبعاثاً لطفلك الغامض وجنونك غير المنجز الذي لا يقشعر للزمهرير ولا يلتهب للاحتراق؟ أنسيت يا حامل واجبات الهوى وملقّن العشاق سهو الاضطرام، أن اللحظة المقذوفة في السعادة، تلك التي تسطع مشيدة، لشهب تعرضها للغصّة المقوية نزول المياه وشلالات الهواء عند ملامستها قزح وداعتك: يا حياتي!!

هي البوح والغربة، الدموع والإشراقة، الأمطار وتكسّرها الواهم، يا من بسارية النهار القائظ بلا مسميات ولا بيانات عسكرية، ننهمر نحو ساقيتنا وجدولهم، لافتراس النهر لصدق الوعد، إذ انطلق من عصفور شفتيها ونافذة صدره الزاخر برماد الحروب، ستدق نحلة الحب رفرافة أجنحتها على قلبينا خماراً لقاع لقائنا المستمر.

لقاء الجسر

لا تفضحهم الأفكار ولا الصور، فكلماتهم تتناسل خارج حدود قوانين المرور وقواعده الدولية، تتراصف سياراتهم على الخط السريع، الذي منع التوقف فيه حتى للمدججين الغرباء.

هو أغرب اللقاءات التي اخترعها العشق في الإنسانية على الإطلاق، بإلهام واحد أو اثنين، تحول الجسر الشاهق على ناصية قصور مسؤولين فارين إلى كراج للحب.

في هذا المكان، قبل أشهر، لو خففت سرعتك، ربما ضربوك بالكيمياوي المخبأ.

في هذا الزمان، توقف سيارتك لتمعن في امتلاك اليد المسنودة قربك.

في هذا الجسر الغريب، لا تتوقف سيارات العزاب، فهو محطة للعاشقين، وفي كل سيارة اثنان لا يزيدون ولا يقلون، هذه شعائر الجسر الممطوط في قلب الكرخ، وإن مررت بعد عشرين سنة، تقرأ قصاصاتهم وبقايا كراساتهم، فيها الفيض والألفة، وأرجوان النمو والنهار المدبر والمحلقين فوق المدينة، المعلنون حبهم فوق رؤوس الأشهاد ومروحيات المحررين الفرحانة بطرافة الحب، إن قرر التغلب على الحرب.

لقاء الأعراس

هي الجزيرة التي حملت في طيّاتها أرحام عاشقات العاصمة، فيها

التوالد والتحابب والتجاذب وانبثاق الدماء الأولى على الأرض الخشنة. فيها المستقر وأدق تعداد سكاني لأطفال اختنقوا بشعارات المخصيين.

آن لها استبطان الجمال واللقاء المتكافئ.

متروكة شاليهاتها وأسقفها وسعفاتها المصطنعة، لمن يرغب في الانتحار حبّاً.

فالجزيرة ظهرت من الماء لتداوي الهيام وتشكل المظنون وتبرهن على أن أعظم ما ستتعلمه في هذه الدنيا، أن تتعلم الحب وأن تحب بالمقابل. وأن تختفي في لوعتك وأن تحب في كل يوم أكثر فأكثر، مهما تبدلت الفصول، تحب حتى نهايتك المقررة وألا تنتهي أحلامك بالغرزة الأولى للحب وأن تحمل كلفته وثمنه، الحب، حتى نهاية الزمان، وأن هفوة واحدة لا يمكنها إنقاذ الحب حتى لو كان عظيماً.

يخترق فدائيو الحب الأحراش للوصول إلى الأعراس، جيَشان وإن بدا فاجراً، إلا أنه مفرط بالمجون المنظم لرتابة النصف الآخر البائع لنفسه، الملطخ سجل زيارات الجزيرة المملوء بأختام المحاكم الشرعية المنهوبة.

يدور القمر حول الجزيرة التي فقدت عرسانها، خجل ومليء بالغفران لمن لم يسمع نصيحة حب واحدة.

لقاء الجنود

الحاذق للدبابة الأميركية، وضع في قلب اعتباره، بوابة تنحني لتصبح سلماً حانياً لكي يغرز الجسد نفسه بسرعة البرق في جوفها.

هكذا يصنع البغاء حضارته في حضرة الحرب، بذنب شعارات المجد وتبرم المدارك للمهنة الأقدم.

مع نشوة الشارع المستلقي على أمان الجنود المتلهفين سماع دقات قلب وآهة مدلاّة بعد انطفاء الوطيس. وبغريزة من يرنو إلى الحضيض، يقترب الخيط من الإبرة، بإشارة أو كلمة مستعادة، تفتح البوابة المقضومة، فتمرق بها بائعة الحب والرضا ودمية أخطائنا كأنها تقول: نحن مخلوقات عالم الرذيلة لا يمكننا أن نشعر بالحب، فيقول لها القمر: لا، لا أحب امرأة باعت نفسها وبلا حب كلنا أقزام تمسكنا الرذيلة.

تغيب الدبابة عن منظرها بعد إغلاق البوابة بعنف، لتتحول إلى طيف شجرة أو بركة خلفها مطر غير منتظر، وبدلاً من القذائف، يطن داخلها أوار حبّ بلل جبهة المدينة بالحمرة وقطرة اليأس النافذة.

اللقاء المستحيل

يبعث المبعوث صورة حبيبته المحلية لأمه وراء المحيط، تجن من هول هذا الجمال وجرأة ابنها الذي نجا من الأسر والقتل، لكنه وقع في الحب. هكذا فلا يحتمل الحب واسطة ومعجزة، سوى أن نسير في طريقه، صباحاً وظلاماً، في ليله المتداول وفرحه المقرّب وتعبّده المفرّق.

فطنت الحياة وأرخت سدولها، فلا جداول ولا محيطات ولا مجالس ولا ساسة ولا خطط أو جدول زمني للانسحاب يوقف الحب ويجمد لونه، فهو الصرير في الغابة والوقوف بلا حراك وسط شارع مزدحم واللعنة والنعمة، المجدد، المنتصر، الخالد، ممزق الحجاب والمستجم في الملاك المقموع، ذاكرة الحنان وانعصار التكبر وجامع الثنائيات ومسوي التضادات.

بلى، فقد وقع صبيك بالحب في سليلة أنانا مفتتحة الحب، عابراً الأزمنة، آسراً متأسراً من فوحة الإلهام..

لكن إن أحببت يا صديقي

فلا تدع قلبك يبكي، فقط:

ألق سلاحك وادفع فاتورة التسوية العاشقة.

□ □ □

ليس أحوج من الحب أوقات الحرب والمهلة المستنفدة. سلطان وعساه أن يكون كذلك، ملمع صناديق البريد بالأزهار والبصمات المولعة والقلوب المنزلقة من فوهات الظروف. ناقوس الولوج لصدى النداءات ووجهها الصبيح ودكنة تمرغنا وضراعة استغاثتنا وهيأة أحلامنا العارية والناسج خيوط الكلمات والداعي للكتابة والتقلب المضني والراعي دموعنا على المخدات، المكابد، الصابر، عودنا الذابل وإيواننا المزروع برغام التعثر والإحباط تلو الانكسار، ذلك النصل، ما إن تحرك فيك يبقيك فقط على قيد الحياة ـ الصبا، في أرديتهن وحشدهن المرصع مع التواء المهج.

كان في بغداد
كنّا وما كــان

حب نابت كملقن أسى وقبض مراع تشاطر ترعرع قلب ضالّ.

بمرضاتك أيتها الشجرة الطيبة، ننشد حكايات اللقاء والفراق، تلفنا من أصواتنا وتمسكنا متلبسين مع سبق الإصرار بالحب.

مباراة الجمال بين العراق وإيران

«يعود الجنود بقطَع قليلة من أجسامهم يقعون في غرامي لمدة ساعة ثم يموتون»

ـ مايكل أونداتجي ـ

إنها هنا، تتأمل حركة الوافدين والجدران والمنارات وبلاط المرمر، تتذوق مشيتها العذراء وسط جرعات المبحرين بالحزن، مجهولة أريدها؛ أراها وأضيّعها كمناجاة ألم طارئ: ما الذي فعلته لتكون جميلة هكذا؟

وجوه مستجابة

اللواتي يمتلكن فرح الشمس، تنفتح أسارير الجمال لهن كفجر

يحتضن أوراقه المخضرة تواً. وكما لو كان كل شيء مدبراً في هذا الاحتضان، فثياب الأرملة تختلف عن العروس الحديثة، وابتسامة المنتظرة مفقودها، تصقل نقاء الانتظار، وحيرة الباحثة عن صداه في الفضاء تغذ عشّ نداوتها الصامتة وأنينها اللامبالي، كلما سقط الظل بكليته على براءتها، والمجرجرة فتيانها المنهمرين على جدول أيامها بلا توقف، تستبدل الكلمات بالتنهدات، والمنسية تترك جبهتها تتبدل باللون وجسدها يفرط بالصدأ، وإن تشعر بأن لهذه الحياة معنى؛ تتواطأ مع أحلامها، تشدها بجعة طفولتها لأنا المرآة، والضاجّة في الدنيا والصاخبة ابتهاجاً بروائح أجنحتها، تؤجج يومها بطوله وكأنه معركتها الأخيرة.

إنها حال باقة النساء، السنابل، حين يبهجن العين دفعة واحدة في خضم التزاحم والليلة الممجدة.

الطائرون والحاطّون

وهو الأتون: ندى وعصافير يغنى لحنها، فأين تكون؟ هل تسمعني في الدورة المختلطة؟ وإن حل الخبر المنتظر: ستأتي! أألوم الظلال أم الحياة أم السهر؟

والتي لقنتني كل هذا الشعر، أتسلبني الحرية وكل الكلمات التي تنتهي عندها؟ فلا رقص في المقل ولا اشتراك نافع في المصير. وكما الأطيار تمني الرياح الرقيقة، فالمرأة الوحيدة التي لا تنام تؤذي أي عيد، كلآلئ في جوف قش، كثوب ماهر لا يغير مظهره، انتصار سهل كخصلة يحفظها المزيّن عن ظهر مقص.

شفاء بالجمال

مهما ولد الحزن حزنه، ومهما طبّلت الليالي مصائبها وشجونها ومهما بدلت السماء مشيئتها، فكبريت النضارة يشعل شمعة الجمال ودمقس الزمان.

وحده الجمال يؤلب الليل ويبتكر الشوق ويسمّر الدروب لنكهة الأرض ويخمّر الدموع فوق طمي الطوفان المحال.

هو الرؤية العبقرية والمؤلف الملهم، الجمال، نَفَسٌ بين النار والثلج والوريد والشريان والحالي والمرتجى، مزحزح الحروف عن مناكبها ومخرس النغمة عن قوافيها، فخر المستسلمين لبهجته وضيائه الأخاذ.

يا لهذا الحزن الظاهر المنكبّ على المدينة وأي ازدحام للجمال في مصادفة تكريم الرجال ـ الأساطير، كما لو جئن إلى خط استواء الوقت الذي يتعذب.

تمجيداً وزهواً

هل من حق نبع هذه الجميلات إنتاج كل هذا السواد؟ أيكنّ رسوماً آتيات من بعيد، إشراقة تفعل مقلبها بالأبصار، أهو الجمال بعينه أم طلاء مرّ بأصباغ مسافرات للحرية!

فيا أيتها النفس الجميلة لا تعجني فؤادي وامرحي في ظلامي واسكني دكنتي. واسألي عينيك، ألا تتطلع نحو خبير اللحظات السعيدة!

وأنت يا عهود: ألم تظفري بعد بخميرة الليالي المتوقدة!

العابرات سهواً

وأسلوبهن التبختر والإمعان في الحلاوة والمحيا المبشر بفرح عصافير الغابات.

في هذه اللحظة المؤانسة، يتفوقن على المحليات، فالطيور المهاجرة تنساب أبهى من الساكنات، الذابلات في فناء النزل. وترى الجمال يفرض على القادمات طبائعه فالزهرة العابرة أعبق من تلك القابعة ولو في السنديانة الملكية.

المحليات عرائس مسكينات بلا أريج الفتوة والدماء المتناسقة، بينهن أشجار يانعات، لكنهن بلا دلال وعيون متفتحة، مكتظة بالصواري، كما لو كن منهوكات بعراك مع ملاحين لا مبالين.

والقادمات والعابرات، تجوس فيهن الرموز التي لا تُفك وسعة النور وسحر السهول ورنو المزامير، هرمونيا ألوان رغم ارتقاء السواد، الملبس، الحدود الذي ينوء بهن بلا تعنت.

هنّ الأجمل بين كل الأشياء والأوضح بلا تعريف وتحليل، لجمهرة الحواس، نفثها ونكهتها.

السنا في عيونهن والهوى في انسياب بشرتهن، رحيلهن المثبت في جدول «الحملدار»، رحمة، فالعيش مع كل هذه الأطياف، سيجبل على تعلم لغة الأزاهير وارتشاف الجنان، هوينا، كليل غير قابل على التكاثف.

حواجزهن بنيان مرصوص وملكاتهن دفء مسرف الفتنة، يزينهن الخجل، حمرة من برد مستقيم، خفّهن وقوفاً، مشياً أو قعوداً... كاللامس تجاعيد موجة مظللة بالسراب والممسك بفتنة الماء الطريّ.

الكرمة المثقلة

السواد، غياب...

والسواد تكشيرة، ليل، ظلٌّ كثيف، أرجوحة مسندة إلى عظام، غضب مزبد، دود مهمل، عالم ناءٍ، مصيبة صعبة البوح، منغّص كجسر عسكري، رماد أسلحة منهوبة، احتراق عجلة، شقاء ساذج..

السواد، انكماش...

والسواد ثقب وأرق وطحلب وفخّ وشتات وأتراح...

لكنه مستسلم كمتشرد عندما يلبسهن أو يتطفل عليهن، لأنهن الأريج الذي يخفف هول الظلام والحنان الذي يأخذ بحال مغتمّ، وفي انزوائهن المحافظ، يتحولن إلى مقرّ للنسائم الفاترات، بل محاسن شموس في جلا الحسرة، فمن قال أولاً تلك العبارة غير المفهومة: من لبس السواد سبى العباد!

ذلك التبرج الحذر

المحليات ينشدن الصورة ويتحرشن بالمصور ويهدرن بعض الوقت بفتح مواضيع كاضطرام مباح ولو كان منشغلاً بطاقة بطاريات

عدسته أكثر من لمعان عيونهن وفورة عرقهن.

المحليات يرددن الأسئلة نفسها وسرعان ما يجبن عن أسئلة لم تتفوه بها، ارتعاشتهن رحبة ويتعمدن إبراز الجمال ولو كان مشوهاً بإطار الأشعة المصطنعة ولا يقمن وزناً للتكبر وإن كان ناعماً، مغمورات بالرشاقة الفطرية والجموح المؤقت والشهقة الدلعة.

يغزوهن الشعور بالتأخر عن العصور وكأنهن يلجن في فضاء فارغ وقدر هائل من الإحباط ينخرهن بلا حياء، كأن قطاراتهن هاجت وسرحت من أيامهن كابتعاد الغيوم المبللة.

هنّ مجموعة صدور متحسرة وعيون غائرة بالبحث عن الترنيمة والغصن الهزاز، كأن أبواب الملكوت ستباشر في الاستجابة لتفاؤلهن المبهم ما إن تتناولهن الآلام في نموها المستمر.

حوريات سود

للقادمات عيون في الصميم، وإن غلفتهن الدموع. يبعثن رسائل الفرح كابتلاع الفجر عتمة الليل، تدفق أسارير لا ينتهي وإبحار الغريبة ذات المحاسن أجمعين. ملتاعات بإغراق هذه الأرض بتوهجهن المذهب وضحكاتهن المبتسرة، هاديات زوارق الإنقاذ للجمال عندما يتوقف عن المسيل.

إنهن الفائزات في هذه المداعبة، بلا شك وحدود: الإيرانيات!!

قيثارات حرب

«هل تسمع؟

أجل أسمع يا أماه

إنه المطر من جديد

المطر فوق محياك»

ـ أوخينو أندرادي ـ

عجائز من التخوم

لأن الدَين في أعناقهم، ولأن الكرب زال وحرر الشهداء كربلاء أخيراً، فليس أجمل من رؤية عجائز وشيوخ بملامح آسيوية و«سوفياتية» سابقة وإيرانية، يحثّون الخطى، مقوسي الأظهر، طاهري الأفئدة يتواجدون في كل بقعة من هذه الأراضي المقدسة.

ولأن العجائز كثر، فالزمن الغاشم لم يترك لهم فرصة الترجل، لا في فتوتهم ولا في سنيهم القوية من المكان القصي إلى الفضاء المخيم بخيرة الأرواح وأنقاها، فقد ازدهرت مهنة الحمالين ودافعي العربات: عربات كانت قبل لحظات محملة بالخضر أو الفواكه، تشق طريقها بين الجموع بزعيق متوسل لفتح السير وسط هزيم رعد الأكف على الصدور، عربات تتوارى مع العجوز وأحفادها، عربات الشيخ الطاعن كصخرة مستدقة، عربات وشمهم الناري، عربات الحجاب وشعلة العذاب، عربات النواح وسعادة التعاسة عندما تعصر القلب، عربات تهف، وأخرى مليئة بالنواح: آه .. لو بقي لنا حيل، لكنا قدمنا إليك على ركبنا وجراحنا الصغيرة لو وضعناها على جراحك.

تمر حزمة نسوة عشن كثيراً جداً من السنوات العجاف، ببابه وحواليه، فلتتلون غلات عيونهن بالرمق الأخير من الدموع وليتخذن من بابك الذهبي لمسة من يتناسى عذاباته، ليملأن قرابهن بحبك أيها الغالي علينا: على السائلين، طالبي الحوائج بهمس حفيف، وللذين لن ينسوك أبداً، للمنفيين في حياة كنت عالم مكانها وزمانها، لأغاني الطائر الأخيرة محلقاً على منارتك، من تلك النوافذ المحروسة بكفك والتي نطل منها على رقدتك واستكانتك وانبعاثك اليومي المتجدد، بأزيز سراجك، مضيئاً فؤادي المتحسر، بنور عطاياك يا شفيعنا، يا أبا الأحرار تفتح الدروب المرتبكة، أنت ذروة ألمنا وختام مواساتنا ورحم فنائنا وولادتنا.

الأم المزدوجة

هذا الازدهار يولد الأغاني، فلنتمعن في اللوحة التي لن تعثروا عليها إلا بباب أبو الفضل العباس: بعمر لم يتجاوز الشباب تحمل طفلاً

على ظهرها وآخر في بطنها، وحيدة، إلا من رعاية أم الآلام أجمعين، المسبية، المكسرة أجنحتها، المفطور فؤادها، سكينة حفيدة الزهراء، المضناة ببعث رسائلها ودعواتها، لهذه الأم المزدوجة، حاملة الطفلين على الظهر وفي البطن، أجمل الزائرات في أرجاء من حمل كل الأسماء.

تمتمت الأم المزدوجة بكلمات مباركة، لم يُسمع منها شيء وسط صراخ الحشد، تسير ببطء، مقيدة بعباءة تخفي بطنها المستوي بالشهر الأخير.

أيتها المعزية الوحيدة،، ماذا لو تبدع الأقدار مشيئتها ويثور بطنها بنذر المخاض عند العباس! كأن أزهاراً تتفتح في مسراها وكأن نباتات تبزغ عند حواف أقدامها وفراشات تقرع بأسرابها، ظلال صبيحة مجدها الغريب.

ستندفع الروح بداخلها لتمتطي عنان دمائها، وستذيع خلاخل أوردتها صرخة مكتومة، لتطير متوازية مع أصوات طبول وصنوج للمواكب المارة بلا توقف، وسيتحول الدم إلى زمرد في حضرة الخفي الحاضر، وسيستقبل الكوكب، حراً جديداً على ترابه، عنوان مكان ولادته قصير، لكنه بسعة الكون بأسره: باب الجنة!

النواحات

انظر إلى تجمعات النادبات أطفالهن وأزواجهن وإخوانهن اللواتي لم يرين من دنيا البطش سوى المآقي والأسى واللطم والندوب والجرح تلو الآخر. هنّ اللواتي جثمت على كاهلهن كل مرارة الدنيا

وقسوتها، هنّ الأقل في النضارة والأكثر في الشحوب، كأنهن أتين للتزاوج مع المهالك والأعاصير.. لطمن وقبلن أحرف الإمام، الذي متى ما يراهنّ لا بد أن تنفرد شفتاه الكريمتان بالتحية: يا مرتديات أكاليل الشهداء!

القطار الفائت

كنسيان يتيه في نسيان، تتألف مشية عجوز عراقية مثقلة يسير دمها مع نظراتها وفزع التعب وهو يتقاطر من حلقها على أرض حياتها الراقدة كعظام عتيقة.

وراءها تمتد سكة السنين بلا قطار، كم هو مؤلم امتداد الطريق بلا مسير.

عناصر اللوحة: سنون وسكة وزبالة! حيث انتهت عذوبة الأيام ومهد الليالي وولّى صدى الأسحار.

بماذا تمنّي أيامها هذه العجوز؟

وكيف تساير سياط العواصف؟

أهكذا تنكر الحياة أبناءها وتشرب من أحشائهم؟

لا أحد يستطيع وصف هذه العيون وجمرة التعب وحدة السنوات المتلاشية مع القطار الذي لن يأتي أبداً.

الصباح الذي يدفع مثل هذه العجوز إلى الشارع قاس جداً والبلاد

التي لا ترحم الكهول لن تزهر فيها الطيّبات.

كم مرت من ليال ترسم فيها أجفانها وتكحل عيونها وتمطر خدودها بالورد، لكن مروحة الأيام لطمتها وأمالت عليها الغيوم وعمدتها بالكيس الذي تحمله.

وإن جهلها الآخرون فمرآتهم باطلة وضبابهم لا يدرك، فملامحها تدل على نبلاء غيّبهم البحر وزينة فصلتها الأنهار وأعزة القوم عندما تتبدل عليهم الثياب الكريمة.

كومة أوجاع

النسوة الملتصقات في حوض الشاحنة، لا يدل مظهرهن على أنهن ذاهبات إلى عرض سعيد في هذه الدنيا. فهن الساهرات، النادبات، مبتكرات دروب التعاسة، كل ذلك بيّن في جلستهن وقسماتهن وأفقهن المترنح بسطو الدمعة على انفراج الابتسامة.

ولشدة صفعة هذه المشاهد المنحازة إلى الحياة العراقية، نمرن القلب على مشاطرة الأحرف ذؤاباتها لكي تجد لنا وصفاً يستيقظ وسط الأعشاب الموهنة في التئام النزوات وقوارب الهوّة التي تمطر علينا هذه الصور التي لا تردمها كلمات شاقة قيلت قبلها أو ستقال بعدها.

فالكلمات إذا كانت شاطرة، فلتنبع لهن فقط ولمرة واحدة، تخريماً يشيل عنا الهمّ ويغوي تماسكنا في اللافائدة المنسوبة لأصوات موتى.

تسير العجلات مع العباءات وهذيانات الطريق المرجّل بفتوة شمس تدلهن على الضياء. وما إن يزاول الشارع حقه في الارتطام، تتوقف العجلات، لينزلن منها متهالكات، صامتات كمن قضى حياته بلا سرير. ولأنهن في كل مكان، سنلتقي بهن، حتماً، دون أن نفتش عن الصورة.

أم المعدوم

أم عبد الرحمن، تحمل صورته واسمه، تأكلها حالة مؤثثة بالألم، بين البحث عن ابنها، وبين فضح صدام وجرائمه. يهدّها التعب أحياناً لتردد مع نفسها: كم من السنين كنت أشق صدري وأدعو: أعطنا هذا الولد .. أعطنا ولداً و إلا خربت الدار!

أعطانا هذا الصغير، عبد الرحمن، هكذا سميته، لأن الرحمن وحده الذي جلبه لنا بعد أن عجز الأطباء. ربيناه على الصلاة والسلام ومن هدوئه لا تكاد تسمعه، ابني عبد الرحمن، لم يفعل شيئاً، هو لا يستطيع أن يفعل ما يغضب أحداً، أعرفه، لا يهتم سوى بأمه وبالبيت وبكتبه وسجادته، لم يزعج حتى من يعتدي عليه، أبعد ما يمضي إليه جامعته، لا أدري ماذا فعلوا به.

بعد أن سكتت تحدثنا معها ولم تبخل بالجواب حتى عن الأسئلة التي لم ننطقها: انظر له، غادرنا بهذا العمر، له ٢١ سنة وفي الصف الثاني في الكلية، ما الذي يمكنه أن يفعله هذا الطفل! ها أنا أنتظره منذ ٢٢ سنة، كلنا ننتظره. هل عليّ أن أنبش كل مقابر العراق لكي أتشمم عظام صغيري. كل يوم أصب سهمه من الغذاء، لم أغير مكان جلسته في الغداء، أصبّها وأرميها فلا أحد

يستطيع مسّ صحونه وغذائه. انظر إليه، هل يستطيع إيذاء أحد؟

أراه..

في الحصاة المتدحرجة على قلبي
بثقل الروح وفوران البركان
بالكلام المتحول والنافورات المحررة
بوحي القمر وإطلالة الشمس
بلغط الليل وعلو النهار
بالدمية التي ضيعتها على ركبتيّ
بأظافري النابشة موطن الألم
في ظهيرة الرجال الفقراء
وعوانس البلاد وأنقاضه
أراه.. يا سيدة العراق.

سائقات في طرق الموت والفوضى

وحدها في الطرقات التي ابتلعت نباتها، مترقبة عينها خوف إفلاتها من الفضاء المسموح لها في أن تكون بلا حدود، علوّ انطلاق الوحيدة المرددة المعوذات كلها قبل تقدمها الصباحي في شوارع صارت أكثر قرفاً وجزعاً، والبلوى فيها شعور ونفايات ألقت بها الرياح على مصائر الخلق، حرة بمواجهة المفاجآت والصدمات والتعليقات والتحرش المفضي بتحميل النفس أكثر مما ينوء به يومها، المغالي، الممعن أذى ومرارة، وحدها مغطاة بالأدعية وطرد الوساوس ما إن تقع في مطبّ أو زحام عربات جوالة ومركبات محترفة ومسرفات غريبة والرجال الذين امتهنوا نجدة الآخرين وحيوانات تمرست في إيذاء الجميع، كما الصعود المتتالي لسلم ينبغي تجنبه وكتخطي النظرة غير الموفقة.

وحدها بمجاراة الطرق الملغومة وسيارات الموت واللصوص المبتدئين والزمارات المخبولة والشرطة العاجزين والإشارات غير المحترمة والجسور النافقة والرغبة في تخطي ما لا تحمد عقباه وزعيق من ولد

عاطل وجمهرة محمومين بالآمال وتجمع من خدعوا وتشاجر من خسروا الرهان الأخير ومواقع متشبثين بمجد لن يأتي، دائماً وحدها بالرغبة ومملكة الهدوء والاكتفاء النقي واستجماع ما تبقى من حيل لكي تعاود صغيرتها مدرستها وتمسك بدفتر التوقيعات قبل سحبه من المدير العام المرتشي، رافعة الآهة تلو الدعاء، في أن يمضي بها الطريق بلا متاعب ولا مضايقات ولا انفجارات مدوية ولا رمي عشوائي ولا منافذ مغلقة حتى إخلاء الجثث وعبور مواكب المناضلين السابقين وأصحابهم مالكي السيارات المصادرة، وحدها راكعة خلف مقود الحياة التي قررتها، لتأتي وتروح وتدمع وتمسح ليلها وأمانيها ومتعها ومفرداتها المحببة، علّ وعسى أن يكون هذا اليوم أخف توتراً من سابقه كرعشة من ارتكب خطأ بلا عمد، كمثل تقديم تعزية مفروضة أو استعارة بسمة في غير محلها، وحدها تدير مقود السيارة التي ورثتها من الرجل الأبدي أو تلك التي باعت غرفة عرسها لكي لا تهان في تدافع الحافلات الشعبية وتدون عليها النكات الماجنة والشائعات المارقة وتصفيف شعارات الغد المنشود وزكام البنزين المغشوش وعرق من لمّ براغيث الحي في فراشه وتودد من فاته قطار العمر ودعابات من أحس بمواهبه متأخراً.

وحدها، إن تظن أو هكذا يعتقد القلب المسكون بالهواجس، بأن مركبة متهالكة تسير بمشيئتها، أفضل من استدراج الأنين والأنباء المزورة والجلوس في فوضى الإشارات والمكونات الكاملة للشعب المسلوخ.

وحدها، مع آلاف ممن وضعن مصيرهن بأصابعهن لتوفير اللقمة الممكنة وكسر عضد الزهرة، فاتحات سماء الخلاص، مرجرجات الجمود، الرقيقات، الحزينات، الصامدات، نجمات الفرسان الغائبين وأحلام الأمراء وأوراق الشجر المذهّب بالمآقي والمطلي بالدموع،

إنهن بأوفى ما يمكن أن يوصفن به: العراقيات!

أميرات الطرقات

أصبح واضحاً أن كل المخاطر التي يتعرض لها المرء في العراق تبدأ ما إن يغادر بيته، في الأغلب. وأن فرص الموت تزيد في الشوارع وأن السيارات تحديداً، المصدر الأول والرئيسي للتعرض للمهالك ولذلك فإن قمة التوتر تسود الشوارع العراقية، لا سيما في العاصمة، والشوارع تحولت إلى ساحة للمنازلة غير العادلة ما بين الآمنين وكل أنواع المجرمين، بدءاً من الانتحاريين وليس انتهاء بقطّاع الطرق.

وأصبح مشاهداً بالعين المجردة، كثرة النساء اللواتي يعتمدن على أنفسهن في قيادة السيارات، وبتعبير أقصر: السائقات. فهذه الظاهرة انتشرت في العراق مرتبطة جدلياً بالبطالة. فنسبة العاملات في الوزارات وشركات القطاع الخاص والمدارس والمستشفيات أكبر من نسبة العاملين، لأسباب ليست محصورة بحديثنا الآن.

الخط والحظ

وعليه فقد وجدت الغالبية العظمى من العاملات أنفسهن أمام ثلاثة خيارات، رابعها الذهاب إلى العمل مشياً، وهذا خيار موهوم بالمسافة فحسب، أما أولها فينحصر في مصطلح ابتكرته النسوة العراقيات وهو الاشتراك بـ«خط».

و«الخط» هو تجمع بضع نسوة والاتفاق فيما بينهن على تأجير سيارة حجمها يتناسب مع عددهن ليصلن بواسطتها لأماكن العمل، على أن تقسّم الأجرة بالتساوي. وللخط مساوئ كثيرة ترتبط بأفضل الحالات بمزاج السائق وصحة سيارته، ومحاسنه اقتصادية وكذلك أمنية من باب: الحشر مع الناس عيد.

والخيار الثاني وهو بمجمله سيئ مثل تسلق الحافلات العامة بلا حرية اختيار من يجلس معك أو جنبك، ومهما تعرضت لمضايقة فهذا من شأن المصادفات وأخلاق الشوارع ومحاسن الصدف وتجليات الدهر. والثالث، هو ما نبحث في توصيفه هذه الأثناء.

السائقات المضطرات

الأمهات غير العاملات يواجهن مشكلة ليست هينة، خاصة اللواتي لا يملكن معيلاً، وهي كيفية وصول أبنائهن إلى المدرسة وعودتهم منها. لذلك دفعت الكثيرات لاستبدال الخيارات المطروحة أعلاه بأخذ زمام الحل على عاتقهن بشراء سيارة مهما طال بها العمر لكي ترتهن مهمتها بتلبية الحاجة المدرسية وأحياناً للتسوق.

ويعد منظر امرأة منهمكة بفتح غطاء السيارة أو التفرج على عجلتها المثقوبة وتلك الهاربة من دخان المحرك القديم، مألوفاً ومتزامناً خاصة مع ساعات الصباح الأولى.

هو اضطرار من ليس لديه الحل، وبند كآبة جديد يضاف لمن تترك رقتها لتنضج عضلاتها وتفكك غطاء الماء الفوار للسيارة الخامدة.

السائقات المتنوعات

إذا كان الرجال يتركون سياراتهم في البيت خوفاً من الاعتداء والسرقة والتفجير ويستقلّون أي وسيلة لقضاء حاجاتهم، فكيف بالنساء المتزايدات العدد في الشوارع؟

ولا تخفى صعوبة حشر نفسك في شارع عام لتسألهن بعضاً من متطلبات الاستطلاع العام في وقت يعد فيه أي نوع من صنوف التطفل مشروع اعتداء، غير أن ظرفاً متاحاً أتاح لأمل محسن التأكد

من حسن نوايانا لتبدأ بإلقاء اللوم على كل شيء بدءاً من الظرف الذي ألفى بها سائقة في شوارع بغداد مروراً بالزحام الذي خلفته كثرة السيارات والاحتياطات الأمنية وقدر المخاوف المهلكة للأعصاب، وحسب تعبيرها انحدار الأخلاق الذي وصل لدى البعض، حتى تلك التي يسمونها أخلاق السواقة.

دهمتنا س . ك بمجاملة غير متوقعة بقولها إن وجوهكم لا توحي بالمضايقة ولا بنيّة الاعتداء، وحسب قولها، أن لديها خبرة في معرفة الوجوه الشريرة، لكنها استدركت قائلة: لا أدري لماذا ازدادت هذه الوجوه كثيراً؟

هناك امرأة مؤمنة بالقدر لم تجد ضرورة لتعريف نفسها، وجلّ إيمانها يجعلها راضية بالمكتوب الذي لا تستطيع هي أو غيرها الهروب منه، باختصار: ألقت كل شيء على القسمة والنصيب.

بينما أخرى تحرص على غلق أبواب سيارتها ورفع النوافذ حتى في الحر الشديد، وبالرغم من كل شيء فهي تعيش قلقاً دائماً ما دامت تسير في الشارع، لكنها حذرت من السير في الشوارع الخالية وفي عز الظهر أو في المساء المتأخر، مؤكدة أن الخشية ليست من سرقة السيارة، بل الخطف أو القتل الذي يمتهنه البعض.

السائقات المحاربات

لم نتعرف إلى بطلة حادثة الحارثية، لكن أكرم، صاحب محل للتسجيلات شارك في جزء منها ويحلو له ترديدها، ففي واحدة من أمسيات بغداد وبينما الشارع مكتظ بالسيارات والمارين سمعوا صوت إطلاق نار، وما إن أطل حتى رأى سيدة بيدها مسدس وتمسك بأحد الأشخاص تبين فيما بعد أنه واثنين من شركائه حاولوا سرقة سيارة سيدة المسدس.

لم تتوان هذه السيدة حال تعرض عصابة الثلاثة لها، انتزعت المسدس وأطلقت النار في الهواء، ولم تكتف بهروبهم، بل لاحقتهم ركضاً وأمسكت بأحدهم، في حكاية يتناقلها البغداديون وخاصة شرطة العاصمة بمزيد من الفخر.

وتبيّن بعد سؤال عدد من السائقات، أنهن جميعاً تقريباً يحملن مسدسات ويحسنّ استخدامها، لكن أيّاً ممن تطفلنا عليهن، لم يشغلهن أناقة السيارة ولا منظرها ولا يفكرن حتى بسماع موسيقى وأغان، وقالت أحداهن إنه لو يوجد مسجل في السيارة فتفضل سماع تلاوات القرآن.

وعن لصق صور رجال دين في بعض سيارات النساء، أجابت طبيبة أسنان تعود من عيادتها في وقت متأخر بقولها الصريح، أنها تطرد العين بهن والشر، وضربت بعض الأمثلة التي أبعدتها فيها هذه الصور من بعض المواقف المحرجة والخطرة.

السائقة المحترفة

شجع خوف بعض النساء من سائقي التكسي الرجال ولكثرة الحوادث المتنوعة من مضايقات وصولاً إلى الخطف أو الاعتداء، فالبعض يستخدم سيارته لمآرب كثيرة وخاصة لاصطياد النساء، حيث لا سيارات تكسي خاصة معروفة بألوانها وعلاماتها في العراق حتى الآن، فأي سيارة يمكن العمل بها بالأجرة، هذا الخوف شجع بعض النساء على العمل سائقات تكسي غير معلنات، وينحصر نشاطهن في نقل النساء فقط.

بمعنى، أن نساء كثيرات بحاجة إلى تكسي في مواقف متعددة، وكذلك هناك العديد من السائقات لا يشير أي شيء إلى أنهن

يعملن سائقات بالأجرة. هذه الظاهرة انتشرت في بغداد، غير أنها خفية، دوافعها الحاجة الماسّة وحرمان النساء وإعالتهن أطفالاً بلا رجل في ظرف يعاني منه البلد من البطالة المرتفعة.

تتخصص سائقات التكسي إلى جانب النساء، في نقل العائلات والرجال كبار السن أو رجل مع زوجته، أما الوقت فيعتمد على ما يكسبه اليوم من رزق يكفي لإطعام الأطفال في اليوم التالي، والأماكن أغلبها محصور حيث الأسواق التي تهواها النساء والمراكز الحكومية والمؤسسات التي تجذب المراجعين.

سائقات طالبات

بُعد مسافة الجامعات عن مراكز السكن، أجبر بعض الفتيات على الاعتماد على أنفسهن في الوصول إلى الجامعة وهي حالة بدأت تنمو. تقول هنادي إنها تتعرض لمضايقات اعتادت عليها، سواء كانت وحدها أو عندما تنقل زميلاتها، فالبعض لا يحتمل وجود عدد من الفتيات في سيارة واحدة. أغلب المضايقين من المراهقين والشبان، لكنها ترى أن زيادة رجال الشرطة وسيارات النجدة في كل الشوارع تقريباً والساحات قلل كثيراً منها، فيما مصاحبة بعض سيارات الشبان لها لغاية وصولها للجامعة ونظراتهم وتعليقاتهم وأغانيهم العالية.. أمور لا يستطيع أحد محاسبتهم عليها من وجهة نظر القانون، فكل منا يجلس في سيارته ولم يواجه اعتداء مباشراً يحتّم الشكوى.

بلا إحصاء

لا يمتلكون في إدارة المرور العامة أي إحصائية لعدد السائقات في العاصمة، بالرغم من أن الأمر قد يكون متاحاً لو راجعوا سجل من تم منحهن إجازات السوق.

لكن الوضع في العراق الآن يتيح لمراهقين بأعمار لا تتجاوز الخامسة عشرة قيادة مركبات نقل وسيارات خاصة، فإجازات السوق يمكن الحصول عليها من أرصفة التزوير.

ومع ذلك فإن الانطباع العام لدى شرطة المرور عن قيادة المرأة للسيارة إيجابية، وهو كونها تتصف بالرزانة والالتزام بضوابط الشارع وعدم خرق القوانين.

سائقات مبتدئات

وتنتشر في العراق مع الزيادة الهائلة للسيارات في السنتين الأخيرتين، مكاتب تعليم السواقة. يقول صاحب «مكتب السعدون»، إن أغلب زبائنه من النساء، فالرجال برأيه لا يلجأون إلى مدارس تعليم القيادة، لأن لديهم متسعاً من الحرية للتعلم بطرق مختلفة عن طريق أصدقائهم وفي أي وقت ومكان، بينما لا تملك النساء هذه الحرية والمكان والسيارة، ولا تأخذ راحتها في الشوارع العامة، فالمرأة بطبعها حسب اعتقاده، تلتزم وتحرص على معرفة الدروس وتخشى التعلم في الأماكن المكتظة والمزدحمة لكون المبتدئة ترتبك كثيراً وسط هذا النوع من الطرق.

على الطرقات أجمل

وسواء كنّ محاربات أو طالبات، عاملات أو مهيضات الجناح، مبتدئات أو محترفات، فوجودهن في الطرق مهابة مكشوفة ونزع الآلام من المطبات وصيرورة تزيد من تحمل مفاجآت الأيام.

هنّ أنوار الشوارع وعصافير الرؤيا وأكاليل متنقلة وبذار أعمالهن الفاضلة.

زمان المعيديات

«النساء القوة الخفية في الأهوار»
ـ كافن يونغ ـ

متداركاً، ملزماً، مأزوماً، حائراً، هائماً ولهان، مجبراً على إركاع المفردة وتطويع الكلمة وعصر جوهرة العبارة، لذرّ أنامل الورد على عصاباتهن وفوطهن وشيلاتهن وجدائلهن وضفائرهن وأكفهن المتشققات من العمل الكثير. فلا جهد يعلو فوق إنجازاتهن ولا يوجد عمل ابتكره الإنسان إلا قمن به بأيديهن عدا حلب الجاموس وصبّ القهوة في المضايف. كل الأعمال التي تخطر بالبال والتي لا تخطر يقمن بها بطيب خاطر قبل ذيوع الفجر حتى مقبله الجديد.

لا يكللن ولا يملننا، فهن كيروسين و«جنريترات» الأهوار بلا أدنى

تردد، ولن تحظى لو درت العالم سبع مرات بمثل الأهوارية، طاقة وبراءة وقواماً ورشاقة وكحلاً وهبته إياها الطبيعة ونضارة شفاه طفل وجسارة شجعان وقوة بنية وجسداً يهزّ الأرض وشكيمة وحسّاً عالياً بالأنوثة ورقّة ندى وحيوية ووفاء يجعل أنين امرأة فقدت زوجها أو أخاها ونواحها في سكون الليل مؤتلفاً عادياً كمسرى الرياح. لن تنسى الأهوارية حبيبها حتى الموت، ولعل قصص العشق التي خلدتها الأشعار المحلية والحكايا بما فيها وحولها مجد إرضاع الحب بأقصى ما تنميه مثابرة الفؤاد وزمجرة القلب حين يهوى. حاذقات وإن بدين بسيطات ولماحات مهما جارت عليهن الأيام وصانعات بسمة في رداءة الوقت، وبلا أستار يندفع الضوء من عيونهن كتفرق المرح في الهواء الناصع البهجة. وعندئذ فقط، سيستحيل رداؤهن المغلوب بالسواد وتكديس الأقمشة وانشطار الألوان بلا مناسبة وتعدد العباءات الفضفاضة؛ شجيرة كرنب وأوراق دردار، وخطواتهن الحافية وذاك الطين الملتصق ببهاء أظافر أقدامهن أطهر من حزن صفصافة وعهد إخلاص وتسريحة ماء خلفه المطر.

لتطلعها وقيامها في الفجر وهجعتها النبيلة بعد إيفاء كل مطالب الخلق والمخلوقات، ولآثار الأرض على بشرتها لفورتها ومساورة فتوتها لإذعانها حين ترمى في أرض غريبة، ولأغصانها المشذبة وجذعها المكسور، ننبئكم باللواتي اندفعن في الآفاق كقناة الحياة الفريدة: نعناعة وطليعة وحسنة وشولة وحليمة ونظيمة وسليمة وزهرة، اللواتي شاركننا ترحالنا بالصوت والصورة والعمل الباهر وإلى كل اللواتي لم يدهشنا الحظ برؤيتهن أو لمحناهن من بعيد ذارعات الهور بالمشاحيف وكل من يطلقون عليهن: المعيديات!

الفورة المبتكرة

تستيقظ الأهوارية قبل الشمس بكثير وقت الـ«سروة» كما يسمونه، منسابة وحدها في المياه لتجميع الأعلاف للجواميس والأبقار والأغنام والدجاج الذين تدق ساعتهم البيولوجية عند مقدمها فيجتمعون حولها ويخاطبونها كل بلغته متوددين شاكرين فرحين بوجبة الصباح.

ويكون عندئذ موعد الإفطار أزف لإطعام البشر بعد الانتهاء من الحيوانات، فتجلب «المطّال» وتحرقه في التنور، وفي الوقت الذي يسخن فيه، تكون بسرعة النار قد جهزت العجين لكي تخبز ما طحنته عصر أمس. ولأن الشلب أو الرز متوفر أكثر من الحنطة في الأهوار فإنهم يميلون أكثر لطحين الرز الذي تحوله النساء إلى خبز «السيّاح» الفاخر بمساعدة قرص من الصاج و«الرصّاع» المفيد للغاية لتقوية بنية الأطفال وعظامهم ويكون أقل سمكاً من خبز الحنطة المعتاد. وفي حالات كثيرة يخبزن «الطابك» وهو أسمك وشهيّ وسمّي كذلك لأنه يعد على طبق طيني. وتتفنن النسوة في استثمار كل ما هو موجود من نباتات في البيئة المحيطة لتحويله إلى طعام، وكذا يفعلن مع نوع من الحلْفاء بعد طحنه ليقدمن الخبز الذي لا يرى في أي مكان عدا الأهوار والذي يسمونه «العجيل». أما الحلوى الأولى التي تصنع في الأهوار فقط، فتعدها النساء أيضاً بتجميع غبار الطلع من رؤوس البردي والذي يسمونه «الخرّيط».

لا يستعملن لقوتهن الخفية، أية وسيلة لانتزاع الخبز من التنور، يرفعنها وسط اللهب بأصابعهن بكل رشاقة.

في هذه الأثناء تنشغل الأخريات في إعداد القيمر والحليب واللبن الرائب «المغالي» والسمن والزبد وأياد أخرى تعد الشاي ليبدأ يوم الجميع في الجلوس على حصيرة الإفطار.

الجوّالة

يقسّمن الواجبات من وجهة النظر الميدانية حسب العمر والخبرة والشطارة والمعرفة بالشيء. فثمة من تبقى في البيت للاعتناء بالأطفال والحيوانات، والأخريات يذهبن بالمشاحيف باتجاه النقاط البعيدة للقرى والمدن لتسويق منتجاتهن وبيعها واستبدال النقود بالشاي والسكر والقهوة والتوابل والسجائر وأدوات للخياطة وقطع قماش عند الحاجة والأعياد، فهم لا يشترون الخضروات لأنها كلها موجودة وكذلك التمر، أما الفواكه فلا يعرفونها!

المرأة إذن، لا تنتج فحسب، بل تذهب بنفسها لتبيع وتشتري، وهي بذلك تتحول إلى منظومة متكاملة اقتصادياً تعهد عليها تنفيذها في كل تفاصيلها، وهي في المفهوم العام «ثقافة اقتصادية» بني على أساسها مجتمع الأهوار الخالي من أي معمل ولو صغيراً لإنتاج مشتقات الألبان أو الغزل أو حتى البواري والأقفاص، وكان هناك معمل واحد للحليب في الفضلية سرقه سيد هادي مع سياراته واختفى في الفوضى التي عمت البلد!

سدت نساء الأهوار هذا الفراغ غير المبرر والإهمال المتعمد للدولة لجزء كبير من مساحة الوطن ونموذج حياة غير مكرر، فالأهوار ليست أريافاً وناسها ليسوا فلاحين كما يظن غير العارفين بشؤونهم، إنهم «معدان»؛ شعب القصب والماء، ذراعهم طير وقلبهم سمكة،

وبهذه العناصر تكتمل صورتهم وبغيرها يجري الحديث عن أناس آخرين ونموذج مختلف.

لقد مرت سنوات قاسية على النساء في الأهوار. كن يحفرن الآبار يومياً طوال سنين بحثاً عن الماء، وأطعمن أطفالهن علف الحيوانات بعد تسخينه لو توفر الماء حتى لا يموتوا من الجوع بغياب رجالهم هرباً من الاعتقال. كن يحرقن القصب حتى تنمو بدله حشائش جديدة يطعمن بها الجواميس، وطالما هربّن الطعام والأسلحة للمقاتلين المعارضين المختبئين في جوف الهور. وحينما حلت ساعة الهروب الجماعي حملن الأسلحة مع الرجال وعبرن الأهوار الماء تلو الماء في زمهرير فبراير ورعد مارس وبرقه الموحش، ولم يجارهن أحد في تحمل كل تلك المآسي التي مهما قيل عنها لن تلثم ليلة واحدة مريرة في الهور.

الماهرات

وكذلك ثقافة إدارة البيت والمطبخ، فسكان المدن أخذوا من الأهواريات الكثير من طرق الطبخ كإعداد السمك المسكوف مثلاً وخبز «السيّاح» الذي يوصي به الأطباء متعلمات المدينة، ونقلن إلى المدينة أسرار إعداد «المصموطة» وطرق تجفيف السمك وتيبيس الباميا وتحوير المشويات كالكباب إلى أكلة «الجباب» التي يستبدلن اللحم فيها بالسمك. ولعل الطرق المختلفة التي تعد فيها النساء وجبات الطيور والدجاج وتشكيل المقبلات داخلها وحشوها بالعنبر والكشمش ونومي البصرة من أطيب ما نقل عنهن من طرق لطباخي المدن.

ويتميزن بإعداد الوجبات الخفيفة وكذلك التي تصمد لأيام عديدة حين يهيّئن «المتاع» للرجال الذين يقضون فترة قد تطول أيام في الهور وخاصة الصيادين وجامعي القصب (العملية قد تطول اليوم بأكمله) ومنفذي بناء الجزر الصناعية «الجباشات». ويتطلب معرفة خاصة بكيفية الحفظ والإعداد لطعام يكفي عدة أيام ملتهبة الحرارة دون أن يفسد الطعام وبدون طرق تبريد.

المخترعات

تصنع النساء كل مستلزمات العيش والأدوات المنزلية من سلال وحافظات الرز والطحين والأواني والستائر والمنادر ومخدات الريش المنتوف من الدجاج ودجاج الماء خاصة لأنه أنعم، وغزل أصواف الأغنام وبرم الحلفاء وتشييد مهود الأطفال وأسرة الصغار والكبار من القصب، وكذلك الأقفاص والمناول والحصران والطبك من نبات الجولان اليابس وسعف النخيل وغيرها.

وتمهر النساء في كيفية التعامل مع القصب وتحويله إلى حصران وبوار ومناضد وغيرها من وسائل العيش. فطوال ساعات تجلس النساء وسط أكوام القصب من أجل تقشيره من غلافه غير النافع ومن ثم «تفشيكه» ودقه باستخدام «المدكة» الثقيلة بمواجهة امرأتين يتناوبان الدق بقوة وسرعة وبشكل متواصل وبمساعدة رش الماء على القصب لفترة لا يتحملها إلا الجسد القوي لحين تحول القصب إلى «ليط» جاهز للغزل والنسج وتحويله إلى أنواع «البواري» أو «الباريات»، ويسمونها أيضاً «طريدة» و«عشيراوية» (السومريون أطلقوا عليها «بورو» والآراميون والفرس «بوريا») وهي مستطيلة الشكل بأحجام مختلفة كان يجلس عليها في يوم ما كل أبناء الجنوب العراقي قاطبة

وتغلف بيوتهم وتحمي أسقفهم لكونها مقاومة للحرارة والرطوبة ولا يستطيع الماء النفاذ من خلالها، ولطالما سترت «البواري» بيوت العراقيين وحددت عوالمهم الخاصة. بالطبع لا يستخدمونها كلها، بل يبيعون القسم الأكبر منها، وأسعارها تدرجت من ٥٠ فلساً أوقات الخير حتى وصلت إلى ألف دينار في أوقاتنا السيئة.

عصر الباريات

أما الطلبات فتزداد عليها حتى من أهالي المدن في ظل ارتفاع أسعار مواد البناء، فالكثيرون يسيجون حدائقهم بها، ولمحنا أكثر من مرة استخدامها ستائر أو لتغليف شُرف البيوت بها لاتقاء الشمس حتى في المناطق الحسنة التدبير، فضلاً عن عودة الناس لتربية الدواجن في بيوتهم طوال فترة الحصار واستمرت للآن، فكانت «البواري» أفضل أعشاش لهن أو لباقي الحيوانات الداجنة. ويمكن إضافة الحسينيات التي استؤنف نشاطها ومجالس العزاء التي راجت أوقاتها والتي تفرش بها، وكذلك الحصول داخل المدن وأطرافها والمشاتل والمسقفات المستخدمة للزراعة الصناعية، ووصل الأمر إلى دخول «البارية» لأول مرة جدول التصدير الخارجي حيث تكثر الطلبات عليها من سورية وإيران وتركيا، ولا سيما المزخرفة والتي تنقش عليها أشكال هندسية لعمل الديوانيات الصيفية هناك والشبيهة بالمضايف العربية، ويزداد الطلب عليها من أرياف الدول المذكورة التي تتشابه بالتقاليد والطباع والاهتمامات.

الملهمات

وإن كانت الطبيعة تكحلهن والموجود يلبسهن والندى يزينهن، فإن

طرائقهن في ارتداء غطاء الرأس ووضع الإكسسوارات وجرأتهن في ارتداء الحلي في القدم والخزامات في الأنف وشكل الجدائل وطراز تهذيبه وترصيعه بالفضة ومعادن براقة أرخص وهندسة الوشم على وجوههن وأكفهن وتطريز ما يظهر من جوارب أو شالات.. أصبحت كلها من الموضات العالمية والشائعة حتى في الأوساط المدنية بين النساء العربيات والغربيات والآسيويات. فهن أول النساء اللواتي ارتدين الحلي في الأنف واهتممن بالأقدام وإظهار فتنتها بالوشم والتطريز والحلي، وهذا ما مشت عليه الموضة بعد قرن من معرفة «المعيديات» واكتشافهن له.

المسترجلات

ذوات جسد قوي، يشاركن الرجال في المعارك وفي صيد الخنازير، وهذه أخطر مهمة تشبه سابقاً صيد الضباع والأسود التي انقرضت من الأهوار. يتعاركن بالمكوار ويصرعن الرجال ويجلسن بالمضايف ولا يمكن رؤية خصلات شعرهن لأنهن يقصصنه كالرجال.

لا يقمن بأعمال النساء كغسل القدور والملابس في الأنهر وصناعة المطال والخبز والجرش، ولا يخيطن أو يحكن أو يطرزن ولا يضعن الحلي ولا القلائد المزيفة، وتظهر أصواتهن خشنة كالرجال أو هكذا تبدو. وإذا كان الأهواريون لا يطلقون الرصاص في تشييع النساء فإنهم يطلقونه لو ماتت واحدة منهن.

هنّ نساء بالتكون البيولوجي، لكنهن رجال في الطباع والشكل والمهام، وربما حتى في الرغبات!

النيسانيات

نساء البلدات والقرى والأقضية والنواحي المتوزعة على أطراف الأهوار لا يسكنّ في الأهوار، الأكثر من المسحوقات والمعدمات يأتين مع الرجال الذين يطلق عليهم «النيسانيون» في نيسان ــ أبريل من كل عام إلى الهور ليعملوا بأجر لدى مسحوقين أقل منهم وهم أهل الهور.

ونيسانيات ليس لأنهن يصلن للأهوار في نيسان ــ أبريل فحسب، بل لأنه في هذا الشهر يبدأ موسم الخير في كل شيء: صيد الطيور والأسماك وقطع القصب وحصد الشلب، وبعدها يبدأ موسم جني التمور وغيرها من منتجات تتطلب أيدي عاملة إضافية.

والغريب أن رجال الهور عادة ما يتزوجون من النيسانيات لأسباب تعرفهم وتقربهم من بعض طوال الموسم الممتد حتى أيلول/سبتمبر، لكن تسمية «النيسانيات» تبقى ملاصقة لهن حتى لو عشن دهراً كاملاً في الأهوار، فحين يحل أجل إحداهن، يقولون: ماتت النيسانية!

الصابئيات

اثنان من ستة رافقونا في رحلة الأهوار متزوجون من صابئيات! فقد كان عدد الصابئة كثيراً جداً، فيما بقي منهم في سوق الشيوخ ونواحيها ٥٠ عائلة فقط. فالكثير من الدراسات أثبتت أن منطقة الأهوار الموطن الأصلي للمندائيين الصابئة. لكن ظروف الحرب والتجفيف والتهجير جعلت نسبة الأناث تزيد بشكل ملحوظ على عدد الذكور (كحال كل العراقيين). وربما كانت هجرة الرجال

أكثر لكونهم أخفّ وأكثر تحرراً، فبقيت الصابئيات بدون صابئيين. وتميزن بالجمال والأناقة والذكاء والإخلاص والعمل والدقة في تأدية الواجبات المنزلية ومنظمات ومرتبات أكثر من «المعيديات»، فلذلك انجذب الرجال لهن أكثر وتصاهروا واستمرت حياتهم على وتيرة الأهوار نفسها، لكنهم في بعض الأحوال حين ينسون اسم شخص ما يهتف أحدهم مذكراً: هذا رجل الصابئية!

المتحررات

لا يظن أحد أن الأهواريات يعشن مجتمعاً ذكورياً وتحرم عليهن أشياء كثيرة ويمنعن من كذا أمور، فمن يعتقد ذلك يخطئ. فليس عليهن سطوة البدوي والريفي وهن متحررات بما اتفق عليه الجميع: تمخر الهور وحدها، تصل إلى المدن، تتعامل مع الأسواق ثم تعود. لن تختبئ كالبدويات والريفيات حين تلمع الكاميرا، وتبتسم للغريب وتجيبه، أحياناً ترفع فوطتها لتغطي نصف وجهها لكن حين تطلب رؤية وجهها (لخاطر الصورة) ترفع نقابها المؤقت بابتسامة وغنج أحلى من السابق. يلقين السلام ويردّن التحية لو ألقيتها، يساعدن رجلاً غريباً أو قريباً، يغسلن القدور والملابس على حافة هذا النهر أو بركة الأمطار أو الهور، يتسامرن عند الشواطئ ويلاعبن البقرات، تسمع أصواتهن وهي ليست عورة، ويمكنك التطلع إلى ملامحهن وتلك ليست بحرمة. يتبادلن الكلمات والأحاديث ويردّن على أسئلة الرجال العابرين ويشتركن في المناقشات التي تجمع بين الرجال في الدار إن لم يكن هناك غريب. ونتذكر أن آراءهن على الدوام كانت هي الراجحة في نهاية النقاش (لا سيما المسنات)! وللنساء طرق فائقة التهذيب لإشعار المقابل بأن ما قاله مرفوض، ويمتلكن حدساً مذهلاً للإعجاب بالرأي السديد والتعبير عن هذا

الإعجاب بمنتهى المحافظة اللبقة، ويمتلكن قدرة على تغيير الموضوع أو توجيه دفته أو التركيز على هذه النقطة دون سواها بجاذبية لا يمتلكها أعرق السياسيين المعاصرين.

هن جزء متحرك ديناميكي تجده في كل زاوية ومنعطف، وحتى تشارك بطلي القار للمشاحيف وإن كان ذلك من اختصاص الرجال كقص القصب، لكن طالما رأيناهن يفعلن ذلك، إما بغياب الرجل أو لمرضه أو لزيادة الخير واختصاراً للوقت.

المجتمع الأهواري مختلط بالمعنى الشرقي للكلمة. تجد النساء فيه عند كل خطوة حتى في المضيف (حالة خاصة) وحريتهن منضبطة بالأصول المتعارف عليها. وبالرغم من أن مساحة الهور الشاسعة تعطي للفتيان والفتيات فرصة الاختلاء فيما بينهم بعيداً عن العيون، فإنهم أبناء عشيرة واحدة وليس من عاداتهم الخيانة (الطرفان)، لذلك تنتهي مثل هذه العلاقات بالزواج في الأغلب.

هي ليست «إباحية الأهوار»، لكنها موجودة في عالمنا كله، إنما شكل الهور يساعدها ويسهل من أمرها، لكنها ليست ظاهرة يمكن التوقف عندها كما استغلّها النظام في مس سمعة الأهواريين من هذه الزاوية، وكان اتهاماً باطلاً بما لا يقبل الشك.

لقد انتزعت الأهوارية حقها في التعبير والحركة واللبس والتزيين والعمل قبل الأوروبيات (فضلاً عن نساء مدننا أجمعين) لكنها تعيش وتموت دون أن تملك المال لأن ما تربحه تمنحه لرجل البيت، وكذلك فإن العائلة لو قررت إرسال أحدهم إلى المدرسة فسيكون الذكر بحظ الأناث جميعاً. إضافة إلى أنها ظلت تعاني من قضايا

سيئة الذكر لا بد من التوقف عندها.

الفصليات

وهذه أسوأ ظاهرة أو عادة، وربما صارت قانوناً عشائرياً لا يزال ساري المفعول للأسف، حتى يومنا هذا.

والمعروف أن حوادث قتل البشر والحيوانات والاعتداءات المختلفة والتجاوزات التي لا يشرعها قانون العشائر موجودة حتى بين أفراد الفخذ الواحدة في العشيرة (السب والقذف قد يصل أحياناً لو تعرض له أحد الوجهاء لمنزلة القتل).

هذه المشاكل لا تحلها المحاكم طوال قرون، بل «تفصل» بها المحاكم العشائرية وفق قوانينها «السناين» وتبدأ بـ«العتبة» وتنتهي بـ«العطوة» (هدنة لتهيئة جهود الوساطات، في غضونها تعقد مجالس مشتركة يحضرها ممثلون محايدون وآخرون مراقبون وبعض الوجهاء والسادة وشيوخ العشائر والأفخاذ المعنية والوسيطة والقريبة). ودائماً في حالات القتل تنتهي إجراءات «الفصل» بتغريم الجاني دفع نساء لعائلة المجني عليهم. والمرأة منهن تسمى «الفصلية»!

والفصليات أنواع ويرتبطن حسب قوة الجريمة وبشاعتها وعدد القتلى وحالات كثيرة. وتبدأ بالباكر التي عمرها يبدأ من ١٤ سنة ويسمونها «الفجرية». وإذا كان «الفصل» فيه أكثر من فصلية فالباقيات يسمونهن «التلاوي» وأحياناً يحدد الفصل أكثر من «فجرية»!

وإذا كانت «الفصلية» أخت القاتل كما جرت العادة، لتتزوج بطرقهم المحلية من أخ القتيل، فيمكن تخيل معاملته لها وتصرفات أهله ضدها ومدى الذل والجور والاغتصاب الفج الذي ستتعرض له طوال حياتها لكونها ارتضت فداء أخيها من الثأر، وحتى لو لم ترغب فليس أمامها سوى الانتحار، الذي لن ينهي المشكلة، أو العودة لأهلها لكي يضربوها ويردوها.. أو طريقة ثالثة سنأتي على ذكرها أدناه تزيد من تعقيد الأمور للجميع وتنتهي عادة بالقتل أيضاً.

المرأة المهر

وتعاني المرأة هنا من علاقة رديئة أخرى وهي اعتبارها مجرد «مهر». وللتوضيح: لو يخطب أخوها فتاة ما فإن أهل العروس يطلبون مهراً أخته لابنهم وفق المعادلة الاجتماعية المريعة «كصة بكصة» (ترجمتها الحرفية: جبهة بجبهة، والترجمة الأكثر وضوحاً: تريد أختنا أعطنا أختك!).

لم نر داعياً لدراسة جذر الظاهرة، لكنها بالتأكيد امتهان صريح لحق المرأة في اختيار شريك حياتها، خاصة في الحالات التي تكون فيها هذه الفتاة قد اختارته فعلاً وهنا تبدأ المشاكل، وقد تصل إلى الدماء حين يقتل العاشق «عريس الغفلة» وتنتهي عادة إما بحرب ثأرية طويلة أو بدفع «قطيع نساء» للمجني عليهم لوقف نزيف الدم.

كم فتاة ضيّعوا حلمها وهشموا آمالها وقتلوا حبها وارتضت بصمتٍ مصيرها لأنها لو تعلن رفضها أو عشقها لرجل آخر فسيكون مصيرها الموت أو العزل في أحسن الأحوال، وهي في الحالة هذه تفقد حياتها وتذبل لتموت ببطء، وأحياناً يقبل صاحب الدية بها

حتى لو رفضته ليُنزل بها كل أنواع الذل والتعذيب النفسي والجسدي وحتى الجنسي.

النهّابات

في هذه الاحتدامات بدأت ظاهرة «النهب» وهي هروب المرأة مع حبيبها، ويسمونها «النهّابة» أو «الشالحة». ويكون هروبهم إلى المدينة عادة، لأنهم لو يهربون للأرياف أو الأهوار المجاورة فسيجلبونهم حسب العلاقات العشائرية ويقتلونهم معاً.

الفتاة «الشالحة» كانت أكبر المصائب التي تحل على أهلها، لذلك حين يعثرون عليها يحتارون كيف يعذبونها ومن ثم يقتلونها ويقطعون كفها ويبقونه معلقاً حتى تعرف كل العشائر أنهم محوا «العار»!

والأكثر مأساوية في قصص «النهّابات»، أن أهلهن يطاردنهن مدى العمر حتى لو أنجبن أطفالاً وكبروا وأصبحوا رجالاً، فإن كفها سيعلق في واجهة دارها القديم. وأبناؤها حتى لو عقدت قرانها ألف مرة، يعدونهم أولاد زنى ولا يعترفون بهم!

لا ندري في أي خانة نضع النسوة اللواتي يفدين العشيرة أو أقرباءهن، وكيف سنلوم الهاربة مع حبيبها لكي تتزوجه فتنتهي كفاً مقطوعة وهي مدركة لمصيرها.

فداء وإيثار وتضحية وتقرير مصير ومنح الحب.. كل ما يملكه الإنسان حتى حياته وأهله واستقراره أو العيش وفق قاعدة «كصة

بكصة» مع رجل لا تعرفه وربما لا تطيقه؟! وكيف يمكن لأولاد الحب أن يكونوا أبناء زنى حتى لو كانت علاقة أبويهم شرعية فيما «الفصلية» المجبرة والخانعة الذليلة أو التي تُمنح مهراً ليتزوج أخوها أولادها شرعيون؟!

تتزوج النساء على هذا النحو ويقايضونهن بهذا الشكل ويقتلونهن ويعلقون أطرافهن بعد رفضهن السبي في بلد ربع برلمانه نساء وفيه وزارة اسمها وزارة المرأة، وكلهم في دولة ظهرت مؤسساتها قبل ٨٠ سنة.

ويبدو أن كل الأطراف فشلت في تعليق «السنائن» على كاهل المرأة فحسب، فالفصل العشائري يكون بالمال والنساء والحيوانات. أي أنهم اعتبروا المرأة بمصاف الحيوانات حين يتفقون كالآتي: مليون دينار وثلاث نسوان وعشر جواميس! وكفى المؤمنين شر القتال! ويخرجون متصافحين يقبل بعضهم الآخر، فيما تبدأ المرحلة الأكثر مرارة وخيبة ومصيبة من القتل حين يستلبون بشراً مثلهم وربما أجمل وأعلم وأخلص وأوفى.

وحتى «العار» مفهوم نسبي ويطرح عدة وجهات، فمن الذي يحدده ومن يقرره؟ ولماذا يعرف الجميع لو حصلت حادثة فردية مع فتاة أو رجل؟ يحدث ذلك لأن هذه المجتمعات بما فيها الأهواري، مفتوحة كأكواخهم ومياههم كما يسميها علماء الاجتماع «المشاعية»، وكذلك نمط نشوء العائلة لا أسرار فيه، الكل يعلم عن الكل الصغيرة والكبيرة، لذلك فإن الكل يقرر حين تأزف الساعة والكل يدفع الثمن لو أخطأ أي منهم، هذه حالهم وهكذا ارتضوا بها.

المؤلف

ولد في البصرة ــ العراق.

ــ دكتوراه في الفيزياء والرياضيات ــ جامعة موسكو.

ــ دكتوراه في الإعلام ـ العلاقات الدولية ـ جامعة موسكو.

مؤلفاته:

الروايات:

١ ـ **صيف في الجنوب**، بغداد، ١٩٨٣.

٢ ـ **الفنارات، بغداد**، ١٩٨٣.

٣ ـ **التوأم، بغداد**، ١٩٨٥.

القصص:

١ ـ **ظل متبخّر**، بغداد، ١٩٨٦.

٢ ـ **الضريح الحيّ**، بغداد، ١٩٨٨.

٣ ـ **التويجات**، بيروت، ١٩٨٩.

* مجموعة كتب عن تغطياته الصحافية في حروب أفغانستان والعراق والشيشان وكردستان.
* ترجم العديد من الكتب عن اللغة الروسية.
* حاز جائزة الصحافة العربية ـ دبي ٢٠٠٥.
* يعمل مراسلاً حربياً متجولاً لصحيفة «القبس» الكويتية.

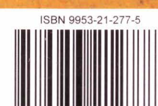
قمحة النار
نساء في ليالي الحروب
جمال حسين علي

على مدى السنوات القليلة الماضية جال المراسل الصحافي الدكتور جمال حسين علي في بلدان كوّتها نار الحروب فشرّدت عائلاتها ورمّلت نساءها ويتّمت أطفالها.

وفي هذا الكتاب يحكي المؤلّف قصصاً ويُجري مقابلات مع العديد من نساء تلك البلدان اللواتي كابدن مآسي تشيب لها رؤوس الولدان. من أفغانستان وبلاد الشيشان إلى إيران والعراق... نساء أخذن دور الأب والأخ.. ونزلن إلى أسواق العمل فبتن بائعات وسائقات وفلاحات ومدرّسات وعاملات... وربّات بيوت. وهكذا سقط الفاصل بين دوري المرأة والرجل وزالت الممنوعات والمحرّمات وباتت كل المهن مفتوحة أمام المرأة حتى (...). وفوق هذا وذاك لم تفقد المرأة في تلك البلدان أنوثتها.

ولأن تلك النساء لا يُحصين، ولأنهن لسن حالات خاصة بل تعدّين عشرات الآلاف وربما مئات الآلاف، كان لا بد من تسليط الأضواء على أحوالهن، فكان هذا الكتاب وتلك القصص التي ساقها المؤلف بأسلوب أدبي، وأحياناً شاعري، وإن كان يصف واقعاً مريراً وظلماً مجحفاً يندى له جبين الإنسانية.




ISBN 9953-21-277-5